الدكتور حسين بن عبد الله العمري

الأمراء العبيد والمماليك في اليمن

بحث تاريخي مقارن بين الشرق والغرب
حتى القرن العشرين



دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان



الأمراء العبيد والمماليك في اليمن



الدكتور حسين بن عبد الله العمري

الأمراء العبيد والمماليك في اليمن



بحث تاريخي مقارن بين الشرق والغرب
حتى القرن العشرين

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان



الكتاب ٧
الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ = ١٩٨٩ م

لبنان - **بيروت** - ساقية الجنزير ، خلف الكارلتون ، س.ت ٥١٤٩٧
ص . ب (١٣٦٠٦٤) هاتف (٨٦٠٧٣٩) تلكس : FIKR 44316 LE

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

إذا كان لا بد من مقدمة لهذا الكتاب ـ كما هي العادة ـ فليسَ ذَلكَ إلاَّ لإيضاح أَمْرَين ، أحدُهما يتعلق بإخراجه في إطاره الحالي ، والآخر إشارة عامّة إلى قُصورِ الدِّراسات العَرَبِيّة الْحَديثة في موضوع الرّق والرّقيق .

لقد كان الكتابُ بفصوله الأولى مُساهمةً في مُجلد ضَخْم عن اليَمن صَدَرَ في ألمانية الاتحادية في ربيع العام الماضي باللغتين الألمانية والإنجليزية بعنوان (**اليمنُ ثلاثةَ آلاف عام من الحضارة والفن**)[1] شارك في تحرير أبحاثِه أكثرُ من ثلاثين عالماً وباحثاً من عَرَبٍ ومُسْتَعْرِبين .

ولما أردتُ إخراجه كتاباً وجدتُ أنّه غير مُوفٍ بالغَرَض ما لم يستكمل من الناحية التاريخية (حيث توقف البحث عند مطلع القرن الماضي) ، فتم وصله بتاريخنا المعاصر ـ إلى بعد عقد ـ من إعلان اليمن عام ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٤ م منعَ تجارة الرّقيق وتحريم الرّق ، وهو أمر أحسب أنه مجهول ، فجرى معالجة ذلك في الفصل الأخير .

---

(١) Yemen: 3000 Years of Art and Civilisation In Arabia Felix, etited by: Werner Daum, Published by: Pinguin-Verlag, Frankfurt, (1988).

ولما كان مَدْخَلُ الموضوع إشارةً مُخْتصَرةً إلى نَظْرةِ الإسْلام السَّامِيَـةِ إلى الرّقيق ، وحثّه على التّحْرير (العِتْق) ليأتيَ يَوْمٌ يَتِمُّ فيه تَخَلُّص الْمُجْتَمعِ الإنساني من هذه الظاهرة ، فَقَد جَرى إضافـة فَصْلٍ عَن الرّق والرقيق في عالم الغَرْبِ للمقـارنَـةِ بين عـالمين ، عـالم إسلامي وعـالم غير إسلامي . رفع الإسلامُ في أوّلها مِنْ قيمةِ الإنسان ، حُرّاً كان أو رَقيقـاً ، فَتبوأ العَبيـدُ فيـه أعلى المناصِب وأسّس بَعْضُهم الدُّولَ ، كما ساهَمَ كَثيرٌ مِنْهم في مختلف نواحي الحياةِ العِلْمية والسّياسية والعسكرية ، بينما تمادى العـالم الآخر (الغَرْبُ) في اسْتِعْباد شُعُوبٍ كاملةٍ ، اسْتمرّ في انتزاع شَبـابهـا طيلـة القُرون الحـديثـة للعمل رقيقاً في الأرض والمناجم والْمَصـانع في العـالم الجـديـد (أمريكـة) ومستعمرات أوروبة ، في ظل أوضاع نأت بجانبها عن أي معنىً من معـاني الإنسانية ، ووضعت في ذلك قوانينَ خاصةً عُرِفت (بـالقـانون الأسود)[1] ورغم عصر التنـويـر والآراء الإصـلاحيــة ، ودعـوة الثـورة الفرنسيـة (١٧٨٩ م) إلى الحريـة والأخـوة والمسـاواة ، فقـد وافـقَ ذلـك التسـابـقُ الأوروبي الاستعماري ، الـذي مَثَّـلَ شَكْـلاً آخرَ من الاسْتغـلال لـلإنْسـانِ والثّروات ، وخَلّف آثـاره المعروفَـة حتى عـالم اليوم . ورَغْمَ مَبـادئ القَرنِ العِشْرين وإعلان (حُقوقِ الإنْسان) فقد بقيت ممارسةُ التّفْرِقَةِ العُنْصريّـةِ في أفريقية وأمريكة كابوساً مُؤرقاً للضّمير الإنْساني ، بعد القضـاء على الرِّق التّقليـدي وأشْكـالـه القَـديـمةِ والْحَـديثـةِ ، ومُرور زَمنٍ طَويلٍ على إعلان مبادئ حقوق الإنسان وحقّ الشعوب في تقرير مصيرهـا ، وغير ذلـك من

---

(١) راجع (ص ٧٩ من الكتاب) .

معـاني الحريـة والتحرر التي نـاضلَتِ الشّعـوبُ من أجلها ، وصَبَغَتْ بهـا تاريخَ العَصْرِ الْحَديثِ والْمُعاصِرِ .



يعالجُ كتـابُنـا حـالـةَ الأمراء العَبيـدِ والْمَماليـكِ في اليَمَنِ ، في نَظْرَة تاريخيةٍ خاصَّةٍ باليَمَن مُنْذُ فَجْرِ الإسلام حتّى عَصْرِنا الْحَـديث . تنـاولنـا فيها ماهو ضروري من ربط ذلـك بـالإطـار التـاريخي العـام ، الإسلامي والعالمي ، دُونَ حاجة لكثير من التّفـاصيل التي لاتستوعبهـا إلا دراسـاتٌ وأبحاثٌ مُستفيضة . ذلك أن موضوع (الرّق والرّقيق) في التاريخ العربي والإسلامي من الأمور التي لاأحْسَبُ أن أحـداً يَجْهل مَـدى غَزارة مـادتها وتَنَوُّعهـا في أمّهـاتِ كُتِب التّـاريخ والأدبِ ومَصـادِرِ التُّراثِ العَرَبيّ ، غير أن الدراسات والكتب العربية الحديثة مـازالت محـدودة نهضَتْ بهـا جهودٌ مشكورة لنفرٍ أفاضِل لا يتجاوزُ عـددهُم ـ فيما أعلم ـ أصـابِعَ اليَـدِ الواحِـدَةِ عدّاً[1] . وإنه مما يلفتُ النظر حقاً هذا القصور مع غزارة المـادة ـ كما هو في حقول أخرى ـ مُقارنةً بتلك الدّراسات والإحـاطـة التّـاريخيـةِ والفلْسفيّـةِ

(١) من ذلك : (الرق في التـاريخ والإسلام) لمصطفى الجـداوي / الإسكنـدريـة ١٩٦٣ ، و (الرق مـاضيـه وحـاضره) للـدكتور عبـد السـلام الترمـانيني (سلسلـة كتب عـالم المعرفـة / الكويت / ط٢ ، مزيـدة ومنقحـة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥) ، وللـدكتـور محمـود المقداد (الموالي ونظام الولاء ، من الجـاهليـة إلى أواخر العصر الأموي) ، دمشق / دار الفكر ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، وهي رسالة جامعية جيدة في بابها وأكثر شمولاً وحـداثـة من كتـاب صـدر في القـاهرة عـام ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م لـلأستـاذ محمـد الطيب النجـار بعنوان (الموالي في العصر الأموي) .

والاجْتماعيةِ والقانُونيةِ (الفِقْهية) والسّياسيةِ وغير ذلك من الجوانب التي عالجها الباحثون والعلماء في الغرب من وقت مبكر وحتى اليوم .

إن نظرةً سريعةً إلى المصادرِ والمراجِع التي تُذَيَّلُ بها الْمَوْسوعاتُ الأوروبية والأمريكية[1] بما فيها موسوعتهم الإسلاميّة ، لمادة رقّ أو عَبْد Slave أو ماله علاقة في الموضوع من تَشْريعٍ أو تاريخٍ ، يُغْني عن تَقَصّي مِثْلِ ذلِكَ في الكُتُبِ والدّراساتِ الْمُخْتَصّةِ الكَثيرةِ .

وهكذا فَمَع الأملِ أنْ يُؤدي هذا البَحْثُ الْمُتواضِعُ عن اليمن بعض الغاية المرجوة ، رغم كلّ القُصورِ ، فالأمل كذلك أن نرى قريباً المَزيدَ مِنَ الدِّراسات والبُحوثِ الْمتَخَصِّصة بما يُثْري المكتبة العربيّة ، فلا زال الْمَجال ذا سَعَةٍ ، بكل أبعاده سَواء في الإطار الْمَحَلّي أو القَوميّ أو العالمي .

ومن الله يُطْلب العَوْن ، وهو من وَراء القَصْد

صنعاء ٢٧ شوال ١٤٠٩ هـ **د . حسين بن عبد الله العَمْري**
الموافق أول يونيو (حزيران) ١٩٨٩ م

(١) راجع قائمة المصادر بآخر الكتاب .

الأمراء العبيد والمماليك في اليمن

١ ـ الإسلام والرِّق (العبودية) .

٢ ـ العبيد بين عصرين « الوسيط والحديث » .

٣ ـ نفوذ المماليك والعبيد في دولتي بني رسول وآل طاهر .

٤ ـ الأمراء العبيد في العصر الحديث (في اليمن) .

٥ ـ تجارة الرقيق بين الغرب والشرق (حتى نهاية القرن التاسع عشر) .

٦ ـ العبيد في اليمن حتى تاريخ تحريم تجارة الرقيق رسمياً (عام ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٤ م) .

٧ ـ المعاهدة اليمنية ـ البريطانية (وثائق الرسائل المتبادلة بتحريم الرق) .

١ ـ الإسْلامُ والرِّقّ

« ياأَيُّها النـاسُ إنَّ ربَّكم واحـدٌ ، وإنّ أبـاكم واحـدٌ ، ولا فضلَ لعربيّ على عَجَميّ ، ولا عَجَمِيّ على عَرَبي ، ولا أحمرَ على أسـودَ ، ولا أسـودَ على أحمرَ إلا بالتقوى ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

(حديث شريف)

☆ ☆ ☆

« مَتَى اسْتَعبَدْتُم النّاسَ وقَدْ وَلَدَتْهُمْ أمّهاتُهم أحراراً »

(عمر بن الخطاب)

١) الإسلامُ والرِّق (العبودية)

كانَ مجتمعُ مكـة ، شـأنـهُ شـأن المجتمعـات العربيـة في القرن السـادس الميلادي ، يقرُّ ملكيّة الرقيق والتعامل معهم سلعةً تباع وتشترى في أسواق النخاسة المنتشرة في حواضر الجزيرة العربية ومدن الشـام والعراق ومصر ، شأنها في ذلك شأن الدول القديمة (كالإغريق والرومان) والمعـاصرة لهما في ذلك الزمن كالفرس وبيزنطة .

ولَمّا جاء الإسلام كان من أهدافه السامية تأكيد إنسـانيـة كل البشر ، وأنـه لا فرق بين شعب وآخر « أبيض أو أسـود » ولا فضـلَ لقبيلـةٍ على أخرى : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ إنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى ، وجَعَلْناكُم شُعُوباً وقَبَـائِـلَ لتَعـارَفُـوا إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْـدَ اللهِ أتْقـاكُمْ إنّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِير ﴾ [الحجرات : ١٣/٤٩] .

وفي القرآن الكريم مـا لا يقـل عن أربـع آيـات يحث فيهـا على العتـق والتحرير ، مشيراً إلى ذلـك بـ « فَـكّ رَقَبـة » أو « تَحْرير رَقَبـة » للتعبير عن مَدى ثقل القيد الشديد على الإنسان في تكبيل حريته كما لو كان ذلك غِلاًّ قيّد به عنقه ، وقد أشـارت تلـك الآيـات إلى المنـاسبـات الكثيرة التي يمكن التحرير فيها تقرباً إلى الله وكفارة عن أخطـاء أو زلاّت ، ككفـارة الظهار[1] [المجادلة : ١٣/٥٨] ، والقَتْل الخطأ ﴿ فتَحْرِيرُ رَقبـة مُؤْمنـةٍ ودِيَـةٌ

---

(١) الظهـار : ظـاهَرَ الرجـل امرأتـه ، أي قـال لهـا : أنت عليَّ كظهر أمّي : أي أنت عليَّ حرام وكان هذا طلاقاً في الجاهلية ، فنهى عنه الإسلام (القاموس) .

مُسَلَّمَة إلى أَهْله ﴾ [النساء : ٤/٩٢] ، وكَفَّارة اليمين [المائدة : ٥/٨٩] .

أما في الحديث الشريف فهنالك أحاديثُ كثيرة من أصَحّها قولُ النبي الكريم ﷺ : « أيّما رَجُل أعْتَق امْرَأً مُسْلِماً استنقَذ اللهُ بكُلِّ عُضْوٍ مِنْه عُضْواً منه من النار »[١] ، وقد دفعَ هذا الحديثُ وغيرُه عدداً من المُسلمين إلى تحرير عبيدهم تقرباً إلى الله .

وهذا غيرُ ما كان يصنعُه الصّحابةُ الأوائل من شِراء العَبيد الذين أعلنوا إسلامهم وتحريرِهم ، مثلَما كان يفعلُ أبو بكر الصدّيق كما هو مشهور ، وأكثر من ذلك فقد كان النبي ﷺ يأمرُ بالعِتْق عند كل ظاهرة تستحقّ إظهارَ الخُضوع لله وتعاليم الإسلام ، كأمره « بالعِتاقة في كُسُوف الشمس » « وعند الخسوف »[٢] .

وإذ حسم الإسلام مسألةَ عدم جواز عبودية العربي الذي لم يُسْلِم بتركه على دينه ـ كغيره من الشعوب الأخرى ـ إن كان من أهل الكتاب مع دفع الجِزْية لبيت المال أو الإسلام للوثنيين أو حدّ السيف ، فقد ترك البابَ مشرَعاً لاجتهاد العلماء والفُقهاء الذين كَتَبوا فيه فُصولاً وأبواباً لا يخلو منها كتابٌ في فن الحديث أو الفقه ، تدعو كلها إلى التحرير وتُحبِّبُ إليه ، وتضع الحدودَ والقَواعِدَ المتعلّقةَ بالحقوق والواجبات والآداب العامة في التعامل بين الإنسان وأخيه الإنسان وغير ذلك[٣] .

---

(١) صحيح البخاري : (٤٩ كتاب العتق ، باب في العتق وفضله) .

(٢) انظر : ابن حجر (فتح الباري شرح صحيح البخاري) ٥/١٥٠

(٣) انظر على سبيل المثال : ابن حجر (فَتْح الباري شرح البخاري كتاب العتق) : =

وقد ارتقى الإسلام بمفهوم الرّق عن ذلك الذي كان شائعاً ومألوفاً في الشرق أو الغرب من قَبْلُ ، فكان وضع بعضهم الاجتماعي أفضلَ من غيرِهم من سائر الطبقات ، كما كانت أمهاتُ بعضِ الخلفاء ومِنْ بعدِهم سلاطين العُثمانيين من الإماء ، ونهض بعضهم بأدوار هامة ، منها تسنّم مناصب الوزارة والإمارة ، وأسس بعضهم دولاً . والرق بشكل عام عند المسلمين ، كما يرى بحق جوستاف لوبون (ت ١٩٣١) :

« عِنْدَ المُسلمين غيرُه عند النصارى فيما مضى ، وأنّ حال الأرقّاء في الشرق أفضلُ من حال الْخَدَم في أوربة ، فالأرقاء في الشرق يؤلّفون جزءاً من الأُسَر ، ويستطيعون الزّواج ببنات سادتهم أحياناً - كما رأينا ذلك سابقاً - ويقدرون أن يتسنّموا أعْلى الرتب ، وفي الشرق لا يروْنَ في الرّقّ عاراً ، والرّقيق فيه أكثر صلة بسيده من صِلَة الأجير في بلادنا »[1] .

= ١٤٦/٥ - ١٨٣ ، و (صحيح مسلم) . ومن كتب الفقه : كتاب (الأم) للشافعي ، و (شرح الأزهار) لابن مِفْتاح (كتاب العتق) ٥٥٩/٣ - ٥٨٨ ، (السيل الجرار) للشوكاني : ٣٦٧/٣ - ٣٨٣ ، ومن الدراسات الحديثة المفيدة في الموضوع بشكل عام كتاب د. محمود المقداد (الموالي ونظام الولاء من الجاهلية إلى أواخر العصر الأموي) دار الفكر / دمشق ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨

(١) لوبون (جوستاف) : حضارة العرب ، تعريب عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص : ٣٧٦ ؛ وحول نفس الفكرة ، راجع كتاب (المجتمع الإسلامي والغرب) للمستشرقين هاملتون جب H. Gibb وهارولد بوون H. Bowen ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى / دار المعارف بمصر (١٩٧٠ م) : ٦٠/١

ولأهمية الآراء الفقهية المختلفة عن (العبودية والعتق وما يتعلق بها) انظر : الفقه الإسلامي وأدلته ، للدكتور وهبة الزحيلي ، دار الفكر / دمشق : =

إن الخبر الآتي الذي نقلته لنا كتب التاريخ ، خير مثال لنظرة الإسلام إلى الرقيق ، ونموذج نادر للتعامل الإسلامي الإنساني بين المالك ومولاه ؛ فقد روي أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لمّا سافر من المدينة إلى بَيْت المَقْدِس التي فتحها المسلمون ، كان يُداولُ بَيْنَه وبَيْنَ (عَبْدِه) في الرّكُوبِ على راحِلَتِه ، حتّى إنّه وَصَل وكان الرّاكب غُلامَه ، وأميرُ المؤمنينَ سَاعياً خَلْفَه ! فَخَشِي أبو عُبَيدة بن الجرّاح أن يَحْتَقره النّاس ، فقال : ياأمير المؤمنينَ أراك تَصْنَعُ أمراً لا يَصِحُّ ، فإن الأنظارَ إليك ! فقال عُمر : لَمْ يَقُل ذلك أحدٌ قَبْلك ، وهذا يُوجب اللّعْنَةَ على المسلمين !..[1]



☆ ☆ ☆

= ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤ م : ٣/٤٩٧ـ٤٩٨ ؛ ٤/٣٨٨ ، ٥١٩ ؛ ٦/٤٣٠ ، ٤٤٤ ، ٥٦١ ؛ ٧/٧٥ـ٨٥ ؛ ٣٥٠ ، ٣٥٦ ؛ ٤٤٢ ؛ ٤٦٤ ؛ ٥٤٠ ؛ ٦٠٨ ؛ ٨/١٩١ ؛ ٢٥٩ ؛ ٢٨٢ ؛ ٣٣٢

(١) (انظر : دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي / ط ٣ : ٤/٢٨١) .

٢ ـ العبيد بين عصرين
(الوسيط والحديث)

لاتَشْتَرِ العَبْـدَ إلاَّ والعَصَى معــه   إن العَبيـدَ لأنجـاسٌ مَنـاكيـدُ !

(المتنبي)

« يرفَعُ السيفُ بعدَ الفَتْح ؛ وقال للجيش : اعلموا أنّ عربَ هذه التّهائِم يستَوْلدونَ الجَواري السودَ ، فالجلدة السّوداءُ تعمُّ العبدَ والحرّ ، ولكن إذا سمعتُم منْ يسمّي (العظمَ) (عَزْماً) فاقتلوه فهو حَبَشي ، ومن سمّاه (عظماً) فهو عَرَبي فاتْركوه ! » .

المكرّم بن علي الصليحي
(٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م)

٢) العبيد بين عصرين

« الوسيط والحديث »

لاتبـدو الإطـالـة أو التقصي في هـذا المـدخل ضروريين لموضوعنـا إلاّ بالقَدْر الذي يسمح لنـا بـإيضـاح بعضِ الحوادث ، وانتزاع بعض الصُّورِ في مُجمـل السيـاق التـاريخي العـام حتى نصـل إلى العصر الحـديث . ولعـلّ القارئ الكريم يتذكر ـ بادئ ذي بدء ـ أن وجودَ العبيد والأحابيش منهم بالذات ، وهم الغالبيـة العظمى ، يرجع إلى تـاريخ قـديم قـدمَ العلاقـات التاريخية بين اليمن والحبشـة ، ولعلَّ أقربَ مـا يتبـادر إلى الـذهن أن آخرَ ملوك اليَمن قبلَ الإسلام القَيْلُ المشهورُ سيفُ بنُ ذي يزن قد قَتَله عبيدُه الأحباش سنة ٥٧٤ م انتقـامـاً ـ كما قيل ـ من استعـانتـه بـالفُرْس لتحرير وطنه من الاحتلال الْحَبَشي الثاني (٥٢٥ ـ ٥٩٥ م)[١] .

ولما جاء الإسلام كانت حالُ العبيد في اليمن وأوضاعهم كغيرهم في العالم العربي والإسلامي حيث جرى التعـامل معهم وفـق مـا تقتضيـه الشريعـة الإسلاميـة وأحكام الـدين الجـديـد مـع الظروف والمستجـدات التي شملت عناصرَ وشعوبـاً أخرى لم يسبق للعرب التعـامُل معهـا بل وحكُمهـا . وقـد

(١) راجع : تـاريخ الطبري (دار المعـارف) ١٠٥/٢ ـ ١٥٤ ، كتـاب التيجـان لـوهب بن منبه (ط الهند) : ٣٠٦ ، كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهـاني : ٦٦٢٠/١٩ ـ ٦٦٤٩ ، عاقل (د . نبيـه) تـاريخ العرب القـديم وعصر الرسول : ١٠٥ . وفي تـاريخ صنعـاء (ص : ٢٣٥) والإكليل ١١٥/٨ : أن الذي بنى (سد الخانق) بصعـدة نوال بن عتيـك غلام (مملوك) سيف بن ذي يزن .

استُحدثَ معنىً حديثٌ في اللغة العربية للفظـة (مَوْلىً) وجمعـه (مَوالٍ) لتتخذ بعد الإسلام غير معانيها الأخرى (كالقريب ـ ابن العَم والعم ـ أو النصير) فبات الْمُعتَق أو الْمُحَرَّر يدعى (مولىً) أيضاً ، وسُمِّي بذلك « لأنه يُسلم على يَدِ مالكه ويُواليه » أو « لأنه يَنْزل منزلةَ ابنِ العم ، وتجب نصرتُه وترثه إن مات ولا وارث له » كما في قول آخر[1] ، ويقال كذلك للْمُعْتِق (السيد) « مَوْلىً » أو « مَوْلَى النِّعمة » .

ومع استمرار وجود عبيدٍ في خِدمة البُيوت أو الأمراء ، فقد عُرِفَ الْمُحَرَّرون منهم « بالموالي » ، ومنهم « مَوالي بَني هاشم » أي عتقاؤهم .

ومع امتداد رقعة بلاد الدولة العربية واتساعها لم يقتصر العبيد أو الموالي على جنس بعينه كالزنج أو الأحباش ـ وهو السائد في اليمن ـ بل تكاثرت عناصر الأتراك ، والشّركس ، والمغول ، وغيرهم ممن ظهر نفوذُهم وأخذ يتنامى منذ العصر العَبّاسي[2] ، كما تطور نظام « الموالي » ليكونَ منهم « المماليك » الذين تمكّن بعضُ زعمائهم من حُكم مِصْرَ ، والشام ، والحجاز من منتصف القَرْن الثالث عشر للميلاد ووصل سلطانهم إلى اليمن قبل أن يقضي على حكمهم السلطان العثماني سليم عام ١٦ ـ ١٥١٧ م بقليل .

ولعلّ أول مَوْلىً حكم اليَمَنَ هو حَمّاد البَرْبَري مولى الخليفة العَبّاسي هارون الرشيد الذي حكم نحو عشر سنوات (١٨٤ ـ ١٩٣ هـ) وعُرِفَ

---

(١) لسان العرب « مولى » .

(٢) انظر : (ظهر الإسلام) لأحمد أمين ، الباب الأول ، سكان المملكة الإسلامية : ٩٣/٣

بالشـدّة والقَسْوة ، وقضى على بعض الثورات المحليّة ؛ فاستقر الأمن والسلام في ربوع اليمن[1] . وبعد قرن كامل ضعفت في آخره سيطرة بَغداد على اليمن وتنازعَتْها عدّة قُوى متصارعة كان بعضها متحالفاً أحياناً وأهمها (بنو يعفر الحواليون ٢٢٥ ـ ٣٩٣ هـ / ٨٣٩ ـ ١٠٠٣ م) في شبام وصنعاء ، وبنو زياد ٢٠٥ ـ ٤١٢ هـ / ٨٢٠ ـ ١٠١١ م في تهامة زبيد ، وعلي بنُ الفَضْل الخنفري القِرْمِطي (ت ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م) في اليمن الأسفل (مذيخرة) ، والهادي يحيى بنُ الْحُسَين الرَّسِّي (٢٤٥ ـ ٢٩٨ هـ / ٨٥٩ ـ ٩١٠ م) مؤسس دولة الأئمة الزيدية في (صنعاء) وبعد خروجه منها تمركز في صعدة .

لقد كانَ الأميرُ أسعدُ بنُ أبي يَعْفُر أبرزَ أمراء الدَّولة اليَعْفُرية ، وحين كان في عام ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م في صنعاء والهادي في صَعْدَة ، استنْجَد أميران من آلِ يَعْفُر[2] بالهادي يحيى بنِ الْحُسَين عن طريق الزعيم القَبَلي الكَبير الدَّعَّام بن إبراهيمَ ليحاربَ معهما « عبيدَهم » بعد وُقوع الْخُلف بينهم « على أن يسلّما إليه ما في أيديهما » وقد طَلَب الهادي مواثيقَ ابْنَيْ يَعْفُر فأخذها الدّعّام وجَهّز الهادي ، فغادرَ صَعْدَة ومن معه حتّى وصل رَيْدة ـ بلدة معاصره العلاّمة الهمداني ـ على بعد نحو ٧٠ كم شمال صنعاء ، والتقى بابني يَعْفُر في البَوْن على مقرَبةٍ من رَيْدَة ، فأخذ عليهما الأمان

---

(١) تاريخ صنعاء للرازي : ١٠٧ ـ ١١٠ ؛ وراجع : ابن الأثير ١٦٦/٦ و٢٠٥ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ٦٤/٢

(٢) لم يَذْكُر المصدر (الآتي) اسميهما .

والعهود على أن يسيرَ معهما الهادي والدّعّام إلىٰ « ناحية صنعاء »[1] بيد أن الهادي وهو في طريقه تقاتل مع بعضِ القبائل في منطقة أَرْحَب ، وهاجَمَه آلُ طريف فتَرَاجع إلى « وَرْوَر » الذي لا يَبْعُد كثيراً عن رَيْدَة بعد أن أُسِرَ ابنُه وآخرون « وَمَضَوا بهم حتى أدخلوهم صَنْعاء ، وطافوا بهم في الأسواق »[2] ولم يَعُدْ لقضية عَبِيد آل يَعْفُر ذكر ، بل يبلغ الهادي وهو في « وَرْوَر » خبرُ قُدوم مولى لبني العَبّاس من بغداد هو القائد العسكري علي بن حسين جفتم مافزِع لذلك وتخوَّف منه ، فانسحب عائداً إلى صَعْدَة[3] .

وفي مصدر متأخر[4] نجد الخبر نفسه منقولاً عن صاحب سيرة الهادي[5] ، لكنه يسمي عبيد آل يعفر « بمَواليهم »[5] . ونستفيد من صاحب السيرة المعاصر للأحداث ـ والمتحيّز دائماً للهادي ـ في مناسبات أخرى معرفةَ اسمَيْ موليين لآل يعفر هما « جراح بن بشر » و « ابن كَيّالة » فبعد أربع سنوات من خبر خلاف آل يعفر مع عبيدهم ، نجد الأمير أسعد بن أبي يَعْفُر في مطلع عام ٢٩٤ هـ/٩٠٦ م مقيماً بوَرْوَر حيث

---

(١) سيرة الهادي يحي بن الحسين (تحقيق د . سهيل زكار) : ٢٤٦

(٢) سيرة الهادي : ٢٤٧ ـ ٢٥٠

(٣) سيرة : ٢٥٠ ، وقد أسر رجال الأمير أسعد القائد جفتم خارج صنعاء وأدخل إليها ثم أعدم (غاية الأماني : ١/٣٩) .

(٤) هو كتاب (غاية الأماني في أخبار القطر اليماني) المنسوب للمؤرخ يحي بن الحسين ، تحقيق د . سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٦٨

(٥) غاية الأماني : ١/١٨٨ وقارن الخبر في سيرة الهادي : ٢٤٦

أقام الهادي في السابق ، بينما الأخير في نفس الوقت كان قد دخل صنعاء فوثب عليه « ابن كَيّالة » فخرج الهادي إلى صعدة ـ دون قتال ـ وحدث العكْسُ مع جرّاح بن بشر الذي كان متولياً للأمير أسعد شِبَام فقد أخرجه منها القَرامِطة فجاء إلى صنعاء وكتب مع ابن كَيّالة إلى أميرهما أسعد « أن تقدم إلى صنعاء ففعل ، وأقاموا بها جميعاً »[1] .

وبعد ستَّة أشهر تمكّن عليٌّ بنُ الفَضْل من دخول صنعاء ، فتراجع الأمير أسعد إلى « قدم » بحَجّة وكان معه ابنُ كَيَّالة ، بينما توجه جَرّاح إلى عثَّر « بتهامة عسير »[2] .

لقد كان ابن كَيَّالة أكثرَ التصاقاً وموالاة للأمير أسعد ، ويبدو أن تنافساً وخلافاً كان بينَه وبين جَرّاح بنِ بشْر الذي لم يعد من تهامة إلاَّ في شهر ذي الحجة عام ٢٩٧ هـ /أغسطس ٩١٠ م لما بلغه انتصارات ابنِ كَيّالة في حَراز ضد القَرامِطَة ، وترك ابن الهادي لصنعاء بناءً على أمر أبيه ، فلحقه إلى صعدة ، ودخل جَرّاح ممهداً لقدوم الأمير أسعد الذي وصلها من حَجّة في شهر ذي الحجة ٢٩٧ هـ / ٩١٠ م فكان من نصيب

---

(١) سيرة الهادي : ٣٩٣ ، وفي (غاية الأماني) حوادث سنة ٢٩٤ : « وخرج على الهادي موالي بني يعفر كالحسن بن كيالة [في الأصل المطبوع (ابن كنانة)] وابن جراح ، فحاربوه ونافسوه على صنعاء ، فرجع منها إلى صعدة ودخل أسعد بن أبي يعفر إلى صنعاء فاستقر بها » ١٩٨/١ ، وفي (قرة العيون) لابن الدّيْبَع : « ثم إن موالي بني يعفر جمعوا لحرب الهادي بصنعاء فندب أهل صنعاء لحربهم فتخاذلوا فخرج من صنعاء إلى صعدة » ٢٠٠/١

(٢) سيرة : ٣٩٤

جَرّاح أعمال صنعاء ومخاليفُها ، كما كانت ذَمار ومخاليفُها تحت إدارة ابن كَيّالة[1] .

ويذكر ابنُ الدَّيْبَع حول ذلك أنه « لما عَظُم أمرُ القَرامِطَة جَمعَ آلُ يَعْفُر مواليَهم ومن قَدَروا عليه وقَصَدوا القرامطةَ بصنعاء ، فقتلوا بعضَهم وهرَب الباقون ، ودخل أسعد بن أبي يعفر صنعاء وملكها »[2] . ولقد توجه أسعد بعدَ ذلك إلى شِبام ومعه جَرّاح وابن كَيّالة فتحارَبَ مع القَرامِطَة طويلاً حول المدينة وأمَدّه الأخير بالرّجال من ذَمار حتى أمكن هزيمةُ القرامِطَة . والغريب أن أسعد لما عاد إلى صنعاء ومعه جَرّاح « قدم ابن كَيّالة إلى صنعاء يوم الاثنين لعشر بقينَ من شعبان من هذه السنة (٢٩٨ هـ / ٩١٠ م) فأخرج جرّاح بن بشر عنها طَرْداً فصار إلى بلد قدم [قرب حَجَّة] وانصرف ابنُ كَيّالة إلى ذمار ، وأقام أسعد بن أبي يعفر بصنعاء »[3] .

ولقد عاد ابن كَيّالة ثانية لمناصرة سيّده في العام نفسه ضد القرامِطَة في شِبام ، ثم توجّه معه للقضاء عليهم في ذمار بعد أن اجتمعت مع الأمير أسعد جميعُ مَذْحِج لمحاربة القَرامِطَة . وفي معركة فاصِلَة بِذَمار انتصر فيها الأمير أسعد قتلَ مولاه ابن كَيّالة « يوم الثلاثاء لعشر ليالي خَلَت من شهر ربيع الأول لسنة ٢٩٩ هـ ، وثبت أسْعَد في البلد وفرّق عماله في النواحي

---

(١) سيرة : ٣٩٦

(٢) ابن الديبع : (قرة العيون) ٢٠٢/١

(٣) سيرة : ٣٩٦

وأقام بذَمار »[1] .

أما جَرّاح بنُ بِشْر فقد جرَّه طموحُه ليتوجَّه بعدَ طَرْدِ ابنِ كَيّالة له إلى تِهامة حيثُ كان هناك مَرَّةً من قبل ، وقد مَنَحَ ولاءه لأحد **موالي** حاكِم الحِجازِ الذين كانوا في هذه الفترة يزاحمون الزياديّين والهادويّين والقرامطة (علي بن الفضل) في السيطرة على زَبيد ومنطقة تِهامة ، وعندما وصل جرّاح بن بشر كان عامل زبيد مُظفَّر بنُ حاجّ قد تُوفي ونُقِلَ جُثمانه إلى مكة ، وخلفَه ابنُه الذي لم يلْبَث أن عُزِلَ ، فتوجه إلى عَمّه عُجّ بنِ حاج إلى مكة فتولّى الأمر قائِد (**مولى**) كان مع أبيه يقال له مُلاحظ بن عَبْدِ الله الرّومي ، لكنه لم يثبُتْ أمام إبراهيم بنِ محمّد بنِ علي ، فتراجع إلى عثَّر ، حيث تحالَفَ معه زعيمٌ من رجاله من حَكَم ـ قبيلة الشّاعر والمؤرّخ المشهور عُمارة الْحَكَمي ت ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م ـ كما صار إليه جرّاح بنُ بشر (ولا ندري من وكم كان معه من الرّجال) وتوجّه بهم مُلاحِظ الرّومي حتى دخل « الْمَهْجَم » في وادي سَردد « والكدراء »[2] من أعمال بيت الفَقِيه ، وتمكّن في الأخير من الاستيلاء على زَبيد وكان ذلك بعد نحو شهرين من مَقْتَلِ ابن كَيّالة في ذَمار ، وكافأ جراحَ بنَ بِشْر بتوليتِه الكَدْراء[3] ولعل الأخير لم يَكُنْ راضياً بذلك ، إذ لم يَحُلِ الحوْلُ حتى قادَه طموحُه وتقلُّبُ موالاتِه إلى مُراسلة علي بنِ الفَضْل

---

(١) سيرة : ٣٩٨

(٢) المهجم والكدراء كلاهما اليوم بلدة خربة .

(٣) سيرة : ٢٩٨

القِرْمِطي الذي سبق له دخولُ زبيد ونهبُها ؛ ولكنه لم يتمكن من السيطرة عليها[1] ، واتفقا على اللقاء . وإذ خرج جَرّاح بن بشر لملاقاة ابنِ الفضل إلى مَوْر اختلفا في الطريق ، فدخل ابنُ الفضل زبيداً فوجدَها خاويةً على عروشها بعد أن أخلاها مُلاحظ وخرج بمن معه وبأهلها وما يملكون إلى الْمَهْجَم ، ثم انقلَب ملاحظٌ لحَرْبِ جَرّاح فظَفِر به ، « فقَتله ومعه أخ له يقالُ له : مُحَمّد بن بِشْر وجَماعة ممَّن كانَ معه ، وذلك يومَ الثّلاثاء ليومَيْن بقِيا من شهر ربيع الأول سنة ثلاثمئة [٩١١ م] وانصرف ابنُ فضل إلى الْمُذَيْخِرة ليوم بقي من هذا الشهر [وقد مات بعد ذلك بعامين] ، وعادَ مُلاحظ إلى زبيد وخلف بالْمَهْجَم والكَدْراء من يقوم فيهما »[2] .

لقد كانت زَبيد - ربما من بداية القرن الرابع الهجري / العاشر مِيلادي - قاعدةً واسعةً لعدد كبير من العبيد الأحباش الذين زاد اعتماد الدّولة « الزيادية » عليهم في الإدارة والجيش ، بالإضافة إلى استمرار تدفقهم بالشراء - للعمل في فلاحة الأرض - حتى مطلع العَصْر الحديث كما يذكر لنا ذلك المؤرخ العلامة الْحَيْمِي صاحب « سيرة الحبشة »[3] .

---

(١) غاية الأماني « حوادث سنة ٣٩٧ هـ » : ٢١/١

(٢) سيرة : ٤٠١

(٣) هو القاضي الحسن بن أحمد الْحَيْمي (ت ١٠٧٠ هـ / ١٦٥٩ م) أرسله المتوكل على الله إسماعيل سفيراً إلى نجاشي الحبشة « فاسلداس » سنة ١٠٥٧ هـ / ١٦٤٧ م وكتب عن بعثه ووصف رحلته كتاباً عرف « بسيرة الحبشة » ، وقد طبع بالقاهرة وحديثاً في ألمانيا (١٩٨٨) مع دراسة وترجمة للنص باللغة الإنجليزية ، وخبر شراء العبيد للفلاحة به (ص : ٢٩) .

وفي زمنٍ لا يبعد كثيراً عن ظاهرة حاكِم مصر ، الخصيّ ، الأستاذ كافور الإخشيدي (ت ٣٥٧ هـ / ٩٦٨ م) ، انتقل الحكمُ تماماً من أيدي الزّياديين في آخر سني دولتهم المنهارة إلى يد طائفة من العَبيد المَماليك المستوزرين لهم والذين أصبح لهم أنفسهم نفوذ وعبيد يملكونَهم . لقد كان أولُ أولئك المدعو « رشيداً » ، وخلفه بموته مملوكه النوبي الأصل « الحسن بن سَلامة » (٣٧٣ ـ ٤٠٢ أو ٤٠٣ هـ / ٩٨٣ ـ ١٠١٢ م) الذي عُرفَ بحزْمِه وعلُوّ همَّته ، فنهض بدورٍ هامٍّ حاول فيه إعادةَ تماسُك الدَّولة المنهارة التي أصبح سيدَها غيرَ منازَع لربع قرن[1] ، وبموته خلَفَه عبدٌ حبشي له هو « مُرجان » كان أيضاً أستاذاً لطفل هو آخر سلالة « بني زياد » . وفي هذه السّلسلة التي تكررت صوَرُها ـ فيما بعد ـ نجد أن لمرجان هذا عبدين حبشيّين أحْسنَ تدريبَهما والعناية بهما ، هما « نَجاح » الموصوفُ بالعَدْل والاتزان ، و « نفيس » الذي كان غَشوماً ظالماً[2] . ولا تُفصح لنا المصادرُ بشكل واضح لماذا لم يُدِرْ « مرجان » نفسُه كلَّ أمور الدّولة ، بل اعتمد على العبدَيْن في ذلك ، فوزّع بينهما الأقاليم والإدارة ، فاشتدّ التنافس بينَهما ، حتى انتهى ذلك التنافس بمأساة أثبت فيها « نفيس » ما وصف به من الظلم حين قام عام ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م بسدّ حائط على الطفل الزيادي ـ الوارث ـ وعمَّته ، فجاء « نجاح » لينتَقِمَ من

---

(١) ثغر عدن : ١/٥٩ ـ ٦٢ ؛ ابن الديبع : قرة العيون ١/٣٢٤ ـ ٣٣٣ ، غاية الأماني : ١/٢٣٥

(٢) ابن الديبع : ١/٣٣٣ ، غاية الأماني : ١/٢٣٦

هذه الفِعلة ، وبعد معاركَ ذهب فيها نحو خمسة آلاف[1] قَتَل فيها نَفيساً على أبواب مدينته « زبيد » ، ثم استفسر « نجاح » سيدَه « مرجاناً » عن مكانها ، فأشار إلى الحائط ، فأخرج الطفل وعمَّته ودفَنَهما ، ووضع مكانهما سيّدَه مُرجان حياً مع جثة نفيس ، وبهذه الوحشية أسدل الستار على دَوْلة آل زياد ليؤسس نجاح أوَّلَ دولة يتوارثُها العبيد ويتعاور حكمَها الصُّلَيْحيون معهم سجالاً بعد وفاة نجاح سنة ٤٥٢ أو ٤٥٥ هـ / ١٠٢١ م لكنها استمرّت قرناً ونصفَ القرن خضعت في آخرها لعبث الوزراء العبيد المتنفذين في ظل أمرائهم الأطفال ، كما حدث تماماً مع سادتهم السابقين بني زياد ، فكان من السهل سقوطُ حكمهم الغريب في يد الأمير اليمني علي بن مهدي الحميري الرُّعيني سنة ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م[2] .

ولقد أفاض المؤرخون في أخبار دولة آل نجاح من عمارة اليمني (ت ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م) الذي عاصرَ الشطرَ الأخير من حُكْم آل نجاح بل وضَمّن تاريخه نقولاً من مصنّف مفقود في تاريخ زبيد[3] للمؤسس الثاني

---

(١) تبالغ بعض المصادر فتذكر أرقاماً أكبر من هذا ، ومع ذلك فحتى أقل رقم يدل على وفرة العبيد باعتبارهم مادة رئيسية بين المتقاتلين (انظر : ابن الديبع ٣٣٤/١ وقارن الحاشية فيه) .

(٢) تاريخ عمارة : ٢٢٩

(٣) لا يُعلم عن نسخة من تاريخ جياش الذي سماه عمارة بـ (المفيد في أخبار زبيد) والذي يذكر أيضاً أنه رأى ديوان شعره مجلداً ضخماً (ص ٢٧٥) ويعزو بعض المؤرخين اختفاء تاريخ جَيّاش إلى « أنه كشف فيه أنساب عدة من الناس كانوا يُعزون إلى العرب فحكى عنهم غير ذلك فبالغوا في إعدامه من أيدي الناس ، وقيل : لما قَتَل الحسن بن أبي عقامة نقم عليه الناس ذلك ... فأودع في كتابه المفيد كثيراً من =

للدولة جَيّاش بن نجاح (٤٨٢ ـ ٤٩٨ هـ / ١٠٨٩ ـ ١١٠٥ م) إلى بقيَّةِ من تلاه من المؤرخين اليمنيين كالْجَنَدي (ت ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦ م) والخزرجي (ت ٨١٢ هـ / ١٤١٠ م) وابنِ الدَّيْبَع (ت ٩٤٤ هـ / ١٥٣٦ م) ويحيى بنِ الْحُسين (ت ١١٠٠ هـ / ١٦٨٨ م) وغيرهم ، إلاّ أنها لم تحظ بعد بدراسة علمية حديثة . بيد أننا في سياقنا هذا لن نستطيعَ أكثر من مجرَّد الإفادة من تلك المصادر للوقوف على بعض الأمور المختصرة التي توضّح لنا مَدَى قوة أولئك العبيد وإلى أي حدّ انخرطوا في البيئة اليمنية العربية الإسلامية حتى أمكن قيامُ دولةٍ منهم وبروزُ بعضهم ليس فقط قادةً ومحاربين في بيئتهم الجديدة بل بصفتهم فقهاء وأساتذة ، وأكثر من ذلك فمنهم من ألف وقال الشعر ، كما كان شأن ملكهم الملقب بالْمَكِين ، أو الطامي جَيَّاش بن نجاح[1] .



بعدَ مرور أقلّ من عقدين من الزّمن على حُكْم نَجاح الذي لَقَّبَ نفسه بالمؤيد ، ظهرت على مَسْرَح الأحداث شخصيةٌ يمنية خطيرة وفذة ، استند صاحبُها (السني الأصل) إلى مبدإ الدعوة الشيعية (الإسماعيلية) التي اعتنقها ، ذلك هو الداعي الملك علي بن محمد الصُّلَيْحي الذي أعلن دعوته من قِمَّة جبل مَسار بحَراز في الشمال الغربي من صنعاء عام

= مثالبهم فما زالوا يسعون في إعدامه [أي آل أبي عقامة] ويشترون ما وجدوه منه بأغلى ثمن ثم يتلفونه حتى فقد وعزّ وجوده » (بامخرمة : ثغر عدن ٤٧/٢) .

(١) انظر الحاشية السابقة .

٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م ، ومن هناك انطلق ليوحِّد اليمن كلَّه « بعد أن استأذن حاكم مصر العُبَيْدي المستنصرَ بالله بإعلان الدعوة »[١] وقد استولى على زَبيد عام ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م « أو قبل ذلك كما في رواية أخرى » ، وذلك بعد وفاة نجاح أو موته بالسُّم على يد جارية بارعة الجمال أهداه إياها الملك الصليحي لهذا الغرض كما يزعم عمارة[٢] واتخذ الصُّلَيْحي من صنعاء عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م عاصمة لمُلْكِه الذي امتدَّ من مكة في الحجاز إلى أقصى حضرموت في الجنوب[٣] .

بعدَ استيلاء الصُّلَيْحي على زَبيد وتِهامةَ هرب أولادُ نَجاح إلى « دَهْلِك » الْحَبَشة ، وعُيِّن والياً على زَبيد صهرُه أسعدُ بنُ شهاب الصُّلَيْحي ، أخو زوجه أسماء بنت شهاب التي كانت على درجةٍ بالغةٍ من العِلْم والكَمال ، وبرزت مع أخريات من هذا البيت كالسّيدة بنتِ أحمد زوجة ابنِ الصُّليحي المكرم ، مدبرات للحكم ومشاركات في الحياة السياسية والعلمية في اليمن . وقد كان أسعد بنُ شهاب كريماً عادلاً في معاملته لعبيد تِهامة وأنصارِ آل نَجاح ، كما كان كَمَلِكِه الصُّلَيْحي بالغَ التسامح مع أهل السُّنَّة مستعيناً بكبارهم[٤] . ولم يكن منَ السهل على

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون : ١١٨ (حاشية) ، الهمداني (د . حسين) : الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن : ٧٣ ـ ٧٦

(٢) عمارة : ص ١١٧

(٣) عمارة : ١٠١ ـ ١٢٠ ، بامخرمة : ثغر عدن ١٥٦/٢ ـ ١٦١

(٤) عمارة : ١٢١ ـ ١٢٣ ، الهمداني (الصُّليحيون) : ص ٨٧ ـ ٨٨ ، ولعل من أسباب تسامح الملك الصليحي مع السنة غير سعة أفقه وبعد نظره تحدُّره من أُسرة عِلْم سنية =

آل نَجاح تركُ مُلْكِهم الـذي شيَّـده والـدُهم ، وارتفع بهم عـدد كبير من بني جلـدتهم ، فلم يكـدْ يحـلُّ آخرُ عـام ٤٥٩ هـ / ١٠٦٦ م حتى كان لهم جيشٌ من العبيد قوامه « خمسة آلاف حربة من الحبشـة »[1] وكان سعيـد الأحول وأخوه جَيّاش ابنا نجاح على اتصال بـأنصـارهم وجواسيسهم في زبيـد فكان أن بلغتهم الأخبارُ بنزول الصُّليحي من صنعـاء إلى تِهـامـة في طريقـه إلى مكَّة ـ ومنها كما قيل كان عـازمـاً على السفر إلى مصر بـدليل كثرة الأموال والهـدايـا التي كان يحملُهـا ـ ويبـدو أنـه كان مُـدركاً للْخَطَر الـذي يُعـدّه آل نَجاح ، كما أن صهرَه أسعدَ بنَ شهاب قـد علم بخبر الْمُؤامرة ، فخرج من زبيد يريد الْمَهْجَم على رأس خَمْسةِ آلاف أكثرهم مماليك وأحباش يقربون لآل نجـاح[2] وإذ انتحَى الملـكُ الصُّليحي بعض الشيء عمن معـه من قـوّةٍ فعسكر مـع خـاصّتـه من الأمراء والقـادة وأهلـه في الْمَهْجَم[3] هَجَم فجـأة سعيد الأحول بن نَجاح وعصابةٌ من العبيد قَضَتْ في مَـذْبَحَـةٍ دمويـة على الْمَلكِ الصُّليحي وأخيه عبـد الله « وجميع بَني الصُّلَيْحي » بعـد أن أحيـط

= حيث كان والده فقيهاً عالماً قاضياً باليمن سني المذهب ، حسن السيرة مطـاعـاً في أهلـه وجماعتـه .. (بـامخرمـة ١١٥٩/٢ ، عمـارة : ١٢١ ـ ١٢٤) ولم يكن اعتنـاقـه للمـذهب الجديد سرّاً على يد صديق والده الداعي عامر بن عبـد الله الزّواحي الـذي خلَّف لـه كتبَه وماله إلاّ وقد نضج .

(١) بامخرمة : ١٦٢/٢ ، ابن الديبع : ٥٥٣/١

(٢) ابن الديبع : قرة العيون : ٢٥٣ ـ ٢٥٤ والخبر نفسـه في ثغر عـدن ١٦٢/٢ إلاّ أنـه سقـط منه (فيما يبدو) اسم أسعد بن شهاب وجاء بدله « الصُّلَيْحي » وهو المقصود .

(٣) عمارة : ١٢٧ ، والمهجم : بلدة خربة اليوم من أعمال الزيدية بتهـامـة (. معجم الحجري ٣٩٨/٢ و ٧٢٥/٤) .

بـالنـاس في المحطـة « فلم ينجُ منهم أحـد »[1] واستولى سعيـد الأحـول على خـزائن الصُّليحي وذخـائره وأمـوالـه ، كما أسر أسماء بنت شهـاب زوجـة الصُّليحي ورجع بها إلى زبيد « وجعل رأسَ زوجها ورأسَ أخيـه عبـد الله أمام هَوْدَجها »[1] .

أما تلك القوَّةُ التي انطلق بها أسعدُ بنُ شهـاب الصُّلَيْحي من زَبِيـد ولم تَصِلْ في الوَقْتِ الْمُناسب ، فما له دلالَتُه خبرُ مراسلـةِ سعيـد الأحول « إلى الخمسة آلاف .. فقال لهم : إن الصُّلَيْحي قد قُتِل ، وأنا رجل منكُمْ ، وقـد أخذتُ بثأر أبي . فقَـدِموا عليـه وأطـاعوه ، واستعـانَ بهم على قَتْلِ عَسْكَر الصليحي »[2] .

وتتفق المصادرُ على أن تلك الفاجعةَ قد وقَعَتْ في ١٢ ذي القَعدة سنـة ٤٥٩ هـ / ديسمبر ١٠٦٧ م . ولم يَطُلِ العهدُ بآل الصُّلَيحي للانتقـام وفـك أسر أسماء بنتِ شهاب ، وقد تم ذلك في العام التالي حين شتَّت الْمُكرَّمُ بنُ علي الصُّلَيْحي جَيْشـاً ضَخماً لعبيـد آل نَجـاح ، وعـادَتْ تِهـامـةُ لحكم آل الصُّلَيْحي وعين المكرم خاله أسعد بن شهاب لحكمها ، بيـدَ أنَّ التخلُّص من سعيد الأحول الذي فرّ بحراً إلى جزر « دهلك » لم يتمَّ إلاَّ بعـد أن عـاد ثانيةً وتمكّن بقوةِ العبيد من إخراج أسعد بن شهاب من زبيد حتى تمَّ قتلُـه بتـدبير من الملكـة السيـدة بنت أحمـد الصُّلَيْحي - زوجـة المكرَّم - عـام ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م في معركـة حـاسمـة تحت حِصْنِ قَيْضـان بـالشِّعِر من

---

(١) عمارة : ١٢٧ ، بامخرمة : ١٦٣/٢

(٢) بامخرمة : ١٦٣/٢ ، قرة العيون : ٢٥٢/١ ـ ٢٥٥

(المنطقة الوُسْطى) وقد أثخن القتل في جيش العبيد الذي يزعم عمارة (ص : ١٤٣) أن تعدادَه ثلاثون ألف حربة ، وعنه نقلَ المتأخرون كابن الدَّيبع (٢٦٢/١) ؛ وبصعوبة تم التعرُّف على جثّة سعيد الأحول بعد أن عُرِضَت جثث القتلى أمام زوجتِه فتعرفَتْه ، وتكرّر معها ما حدث لزوجة علي الصُّليحي حيث رُفِعَ رأسُ سعيد على حربة أمام هودَجها حتى أحضر إلى الملكة السيدة بنت أحمد الصُّلَيحي في دارها العز بجِبْلَة[1] .

لقد كان جَيّاش بن نَجاح ـ أخو سعيد ـ فيمن نجا من المعركة وأشاع (نفسه) أنه مات ، ثم فرّ إلى الهند ، وعاد متخفياً إلى زبيد جامعاً الأنصار من العبيد في قصة طويلة نسجَ تفاصيلَها[2] ، وانتهت بعودة سيطرتِه على زبيد لاثْنتي عشرة سنة حتى وفاته عام ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م . وتدل أخباره على الدّهاء والشجاعة ، وعلى معرفة بالتاريخ ونظم الشعر[2] ، وكانَ آخرَ الحكام ذوي الشأن من آل نجاح ، إذ طغى بعد ذلك على صغار ورثته وزراؤهم من العبيد ممن عرف بالْجَبَروت والفُسوق والشهوانية كأنيس الفاتكي وخلفِه منّ الله الفاتكي ، بل كان منهم من عُرِفَ بالشذوذ الجنسي كفانك بن محمد الذي قتلَه عبيدُه لهذا السبب[3] حتى قَضى عَلِيُّ بنُ مَهْدي الرُّعيني الحِمْيَري عام ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م على دولتهم ، فلم تقُمْ لها قائمة بعد ذلك[3] .

---

(١) عمارة : ١٤٢ ، ابن الديبع : ٢٦٣/١ ـ ٢٦٥

(٢) عمارة : ٢٧٥ ـ ٢٧٦

(٣) عمارة : ٣٥١ ـ ٣٥٩

لم تتميَّزْ دولـةُ بني نَجـاح بـأيّ مـأثُرة أو دَعـاوَى مـذهبيـة أو سيـاسيـة ناضلت عنهـا كغيرِهـا من دُوَيْلات العَصْر ، بـاستثنـاء أنهـا كانت ظـاهرةً (عرقيَّة) متميِّزة ساعد في قيامها صراعُ تلك الدُّويلات المتقـاتلـة ، فمثَّلت هـذه قـوةً حقيقيـة من العبيـد والأحبـاش ، وبـات بينَهـا آصرةُ الجنس والإحساس المشترَك بتعالي السادة من (الحكّـام والمـالكين وربّما الآخرين من العَرَب اليمنيين) رغم المساواةِ في الدّين ، ومع أن وضعَهم العـام لا يشير إلى ظُلم يميِّزُهم عن غيرهم من أمثالهم من عـامَّـةِ النـاس ـ كما كان شـأن زنج البَصرة مثلاً[1] ـ إلاَّ أن معظمَهم سواءٌ كان مملوكاً أو حرّاً هجينـاً (من أصل حبشي) قد وَجَد في طموحات نَجَاح متنفَّساً نَفْسيّاً وجَسَدياً ، وإحساساً بالولاء والطمأنينة حتى ولو لم يغيّر ذلك من واقع الأمر شيئـاً يُـذكَر لتلـك الأحاسيس ، وجسدياً للطـاقـة القِتَـاليَّـة التي اعتـادَهـا كثيرٌ ممّن جُلب أو ورثها عن آبائه ، وتدلُّ ألقاب قـادَتِهم من آل نَجـاح على المفهوم القـائم على القوَّة والانتقام ، فمؤسس الـدّولـة هو « المؤيـد نَجَـاح » ، وليس « المؤيـد بـالله ؟ » (ربَّما المـؤيـد ببَني جِلْـدتـه) . وجَيّـاش بن نَجَـاح هـو الملـك « المكين » أو « الطَّامي » ، كما أن لقبَ ابنِه وخلفائِه بعدَه ـ من السُلالة ـ هو « الفاتك الأول والفاتك الثاني والفاتك الثالث » ..

ولعلَّ ممّـا لـه دلالتُـه عِرْقيّاً ولُغَـويـاً مـاأعلنَـه منـادي المكرَّم بن علي الصُّلَيْحي في جيْشه يومَ استنقـاذه لأمِّـه أسماء واستعـادة الصُّلَيْحيين لزبيـد بـأن

(١) راجع الموسوعة الإسلامية مادة (زنج) .

« يرفع السَّيف بعدَ الفتح ، وقال للجيش : اعلَمُوا أن عَرَبَ هذه التَّهائم يستولدون الجَواري السود ، فالجِلْدَة السوداءُ تعمُّ العَبْدَ والحر ، ولكن إذا سمعتُمْ من يسمّي العَظْمَ عَزْماً فاقْتُلوه فهُوَ حَبَشي ومن سَمّاه عَظْماً فهو عَرَبي فاتْرُكوه ! »[1] .

ويُفهم من هذا النَّص فيما يُفْهَم اختلاطُ الأنساب بينَ اليَمنيين في زبيد والأحباش ، وخاصَّة عن طريق التَّزاوج بالجَواري الحَبَشيات ، كما أن لهجة عامة الأحباش ممن استوطن أو لغتهم مازالت تعترِيها لُكْنَة وصُعوبة في مخارج بعض حروف العربية كالظاء والذال ، ولا شك في أن تجارة العبيد كانت مستمرةً غيرَ من قد تأَقْلَم واستوطَنَ ، فمجيء قادمين كان باستمرار إلى سوق النخاسة بزبيد الذي لم يقتصر على زُنوج أو أحباش بل كان من بينهم هنود وشركس وخاصة من الجواري ، ويحتفظ لنا مخطوط[2] ثمين لمقامات الحَريري فيه لوحة مصوَّرة لسوق العبيد في زبيد رسمها الواسطي ، ويرجعُ تاريخُها إلى سنة ٦٣٤ هـ/١٢٣٦ م تُبْرِزُ عبيداً ومشترين يساومون النخَّاس الذي يذكُرهم مَزَايا أحد العبيد الذي تم بيعُه بمئتي درهم .

وفي عَدَن التي بدأ الناسُ بسُكْناها والتردّد إليها في دولة آل زياد (مطلع ق ٣ هـ/١١ م) ثم راجَتْ فيها تجارَةُ العبيد نجد أحَدَ وُلاتها من

---

(١) عمارة : ١٣٤ ، ويريد بـ « يسمي العظم عزماً » عدم قدرته على لفظ الظاء فيرققها زاياً .

(٢) Bibiotheque National, Paris - MS - Arabs 5847, FOL - 105

بني زريـع الـــذين استنـــابَهم الصُّلَيْحي لحكمهـــا (٤٧٦ـ٥٦٩ هـ / ١٠٨٣ـ١١٧٣ م) ، قد رَغِبَ في سُكْنى المـدينـة بـدل الحُصون ، وكان نَقْلُ الحِجارَةِ من « أَبْيَن » لا يقدرُ عليه إلاَّ أهل القوة والثروة :

« فاشترى الوالي رَقيقاً زُنُوجاً وجَعَلَ العبيدُ يقطعونَ لـه الحِجـارةَ من جِبـال عَـدَن والإمـاءُ يحملنَهـا على ظهورهن ، وهو أَوّل من أظهر المقـلاع بِها ، وأول من بَنَى السّور على عَدَن »[1] .

وترك لنا ابنُ الْمُجاوِرِ (ت ٦٩٠ هـ/١٢٩١ م) وَصْفـاً فَريـداً لِصِفَـةِ بَيْـع الجـواري في عـدن في الرُّبـع الأول من القرن السـابـع / الثـالث عشر للميلاد فيه الكثير من الاستهانة والفُحْشِ بـالجواري الْمَعْروضـات من قِبَل التَّاجر « الخواجا »[2] في حُضُور التجار الـذين يُلَقّبُهم « بـالفُجـار » ، فمن خَلْعِ الثّياب إلى تَقْليب مختلف أعضاء جسد الجارية بمـا في ذلـك معـاينـة الفرج « من غير سِتْرٍ ولا حِجـــاب » وأكثر من ذلـــك فبعض الْمُشْتَرين يدّعي العيبَ أو الغِشَّ بعد أن يشتري الجاريةَ وينَالَ منهـا وَطَرَه ، فيرفع عند الحَاكِم قَضِيَّته بذلك[3] !.



لقد دخلتِ اليَمن في ظل الـدّولـة الأيوبيـة بمجيء توران شـاه الـذي بعثَه أخوه صلاح الدّين إليها سنـة ٥٦٩ هـ/١١٧٣ م ؛ وأرسى تُورَان شـاه

(١) تاريخ ثغر عدن : ٩/١ ـ ١٠

(٢) « الخواجا » لقب فارسي الأصل من معانيه التاجر ، وكان يطلق أحيـانـاً على من يمت بصلة إلى أصل فارسي (انظر : د. حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية ص : ٢٧٩) .

(٣) (نخبة من تاريخ المستبصر لابن المجاور ٦٦/١) .

أسس تلكَ الـدَّولـة التي لم تتجـاوز نِصْفَ قرنٍ حتى عـام ٦٣٦ هـ/١٢٢٩ م بعد قضائِه المبرَم على دولة « الْهَمَدانِيّين من بني حـاتم » في صنعـاء و « بني مهدي » في زبيد و « بني زريع » في عدن . بَيْـدَ أن السيطرة الأيوبيـة لم تكتمل على كل أراضي الدولة الأخيرة « الزريعيـة » في اليمن الأسفل إلاَّ في عـام ٥٨٤ هـ/١١٨٨ م في ولايـة خَلَفِ تُـوران شـاه الأخ الآخر للنـاصر صلاح الـدين ، طُغْتَكين بن أيـوب الملَقّب (بسَيْف الإسـلام) وقـد استمر من سنـة ٥٧٧ حتى ٥٩٣ هـ/١١٨١-١١٩٦ م[١] ذلـك أن أحـد ممـاليـك بني زريع ويُدْعَى « أبا الدُّرّ جَوْهراً » كانَ قـد أصبح الحـاكمَ المطلَق على تِلـك الدَّولة لسنوات طويلة منذ ولاَّه سيدُه الدّاعي الْمُعَظّم مُحَمّـد بن سَبَـأ بن أبي السّعود حِصْنَ الدُّمْلُوَة (من أعمال الحجريـة جنوب تَعِزّ) وحين تُوُفّي المعظم سنة ٥٤٨ هـ/١١٥٣ م أقرّه من بعده ابنُـه المكرّم عِمْران ، ولم يلبث أن مات عام ٥٦٠ هـ/١١٦٥ م وبات أبو الدّرّ جَوْهر الْمُعَظّمي (نسبة إلى سَيّده الداعي المُعَظم) وصياً على أطفاله والدّولة كلها[٢] .

لم يكنْ جَـوْهَر هـذا كبعض من مَرَّ من الـوُزراء العَبيـد ، بـل كان مُخْلِصاً لسيده ، وكان تقيّاً عاقلاً حازماً ، ذكيـاً ، عـالمـاً لـه مصنفـاتٌ في القراءآت والحديث والوعظ[٣] وقد لُقّبَ جوهر بالسُّلطـان والأستـاذ شأن كثيرين من العبيـد الأوصيـاء والمعلمين والطَّـواشي « وهـو لقب عـامٌّ

(١) ابن حاتم : السمط (ص ١٥ ـ ٢٣) .

(٢) (أبو) بامخرمة ثغر عدن : ٤٢/٢

(٣) أبو مخرمة : ٤٣/٢ ؛ الحبشي : مصادر الفكر : ٥٣٧

للخِصيـان من الغِلمـان »[1] وعنـدمـا استـولى تُـورَانْشـاه على عَـدَن عـام ٥٦٩ هـ/١١٧٤ م كان نائبُ جَوْهَرٍ عليها الشيخَ يـاسِرَ بنَ بلال بن جَرير ويقال : إنه شَنَقه مع عَبْده مِصباح السَّدوسي[2] وقد تعذّر على تُورنشاه إخضـاع جَوْهر المعظَّمي الـذي تحصَّن في الـدُّمْلُـوَة حتى جـاء طُغْتَكين بنُ أيّـوب فقـام بنفسـه في عـام ٥٨٤ هـ/١١٨٨ م بإحكام الحِصار على ذلك الحِصْن المَنيع ، واستمر أربعةَ أشهر حتى ضاق جوهر ذَرعاً من ذلك ولم يعـد بوُسعـه الصمودُ فـأرسل إلى طُغْتكين يعرض عليـه تسليمَ الحِصن نظيرَ عشرة آلاف دينار مشترطـاً ألاَّ يطلع إليـه أحـد من أتبـاع طغتكين ، كما أنـه لنْ ينزلَ منه قبل أن يكون أبناءُ سيّـده ـ المكرّم عمران ـ قـد وصلوا إلى البحر وركبوا من أي موضع يريدونه . وقـد قَبل طُغْتَكين ، فتسلّم جوهر المبلغَ المتَّفَقَ عليـه واستوثق من خطتـه ، فجمع جميع أولاد مولاه وأتبـاعهم ومـا معهم من الأموال والنفائس ، ونزل معهم متنكراً في زي امرأة ـ مخلّفاً نائباً له ليُوهِم طُغْتكين أنه لم يزل بالحصن ـ وتوجّـه بهم إلى سـاحل المُخـا حيث استقلّوا سفناً كان قد أعدّهـا ، وأبحر بهم إلى الحبشـة ولم يعلم طُغْتكين بـأن جَوْهراً كان مع الرَّاحلين إلاَّ حين تسلّم منـه كتـابـاً قبل الرّحيـل من المخا يُبْلغ فيه نائبَه بتسليم الحِصن ، فتعجّب من حِنْكَة جوهر وحُسن تـدبيره . وقـد ذُكِر أن جـوهراً المعظمي قـد تُـوُفي في الحبشـة بعـد عـام

---

(١) راجع الألقاب الإسلامية (ص : ٣٨٢) ولا نعلم مـاإذا كان جوهر خصيّاً كما لانعلم لـه أسرة وأولاداً .

(٢) أبو مخرمة ٤٢/٢ ؛ د. أحمد عبد العال : الأيوبيون في اليمن : ٨٧ ـ ٨٨

٥٩٠ هـ/١١٩٤ م[١] .

معلوم أن الأيوبيين قد استعانوا بعبيد من التُّرك والجراكسة وغيرهم للخدمة العَسْكرية وعُرِفوا بالَماليك ، وقد تمكَّن بعضُ زُعمائهم من الوُصول إلى الحكم وأسسوا في مصر سلالتي المماليك البَحْرِيّة والبُرْجِيّة حتى قَضَى على حُكْم آخرِ سلاطينهم (طُومان باي) السلطانُ سليمٌ العُثماني عام ٩٢٢ هـ/١٥١٦ م[٢] .

وقد لاحظ مؤرخو الدَّور الأيوبي في اليمن تلك الفَوْضَى التي نجمَتْ على يد النوَّاب الذين تركهم خلفَه تُورنشاه ، ومعظمُهم من المماليك والأكراد (وتختلط بعض أسمائهم بالآخرين) حيث تسابَقوا للسَّيطرة والاقتتال ومنحِ الولاء لبعض القُوى المحلّية كأئمة الزيدية في الشمال الذين برزَ منهم في هذا الوقت عبدُ الله بن حمزة (ت ٦١٤ هـ/١٢١٧ م) ، ومن بين تلك الأسماء نجد سُنْقُر ، عثمان الزَّنجِيلي ، ياقوت التعزّي ، بكتمر السَّيْفي ، شمساً الخَوّاص ، هَلْدَري ، وأسماء أخرى من مماليك الأمير الكردي ورْدَشار الذي يصفه صاحب السّمط « بأنه لم يكن له نظير ، وبلغ عدد مماليكه مئتين وستين مملوكاً »[٣] ولم تنته فتنتُهم حتى جاء طُغْتَكين إلى اليَمن « ليتولّى السلطة فيها ، ويتخلّص من نفوذ النوَّاب بها ، ويعملَ

---

(١) ابن حاتم : السمط : ٢٩ ؛ الخزرجي : العسجد المسبوك ١٩٣/١ تاريخ ثغر عدن ٤١/٢ ـ ٤٣ ، ابن الديبع : قرة العيون : ١/ ، غاية الأماني : ٣٣٠/١

(٢) راجع الموسوعة الإسلامية مادة « عبد : ᶜAbd » .

(٣) ابن حاتم : ١٤٦ ـ ١٥٠

على استقرار الأوضاع ، ويقضيَ على الفتن القائمة »[1] .

إنّ ما تحقَّق على يد السّلطان طُغْتَكين من استقرار قد تحطَّم على يد ابنه المعزّ الذي كان طائشاً متقلّباً غريبَ الأطوار ، انتهى أمرُه على يد جُنده من الأكراد فقتلوه ومملوكَه الحَبَشي في زبيد في ٢٨ رجب ٥٥٨ هـ/إبريل ١٢٠٢ م[2] .





(١) راجع ابن حاتم : السمط : ٢٢ ، ابن الديبع ، قرة العيون : ١/٤٠١ ـ ٤٠٤ ، الأيوبيون في اليمن : ١١٧ ـ ١٢٤

(٢) الأيوبيون في اليمن : ١١٢

٣ ـ نفوذ المماليك والعبيد
في دَوْلَتَيْ بني رَسُول وآل طاهر

« كانتْ نِهايةُ مؤسِّسِ الدَّولةِ الرّسولية على أيدي
مماليكه الذين كان أكثرَ منهم ....
وكانوا يُحسنونَ منَ الفروسِيّةِ مالا يُحسنُه مماليكُ مِصْرَ »

(غاية الأماني : ٤٣٣/١)

٣) نفوذ المماليك والعبيد

في دولتي بني رسول وآل طاهر

خلَّف الأيـوبيـون لبني رسـول حُكْمَ اليمن (٦٢٦-٨٥٨هـ / ١٢٢٩-١٤٥٤م) كما خَلَّفوا لهم نظام الإدارة والاعتماد على المَمَـاليـك ، فقـد بقي عـدد منهم في اليمن[١] ، وكانت نهـايـة مـؤسس دولتهم منصـور الأول نور الدّين عُمَرَ بنِ علي بنِ رسول على يد مماليكه الذين كان استكثر منهم « حتى بلغَتْ مماليكُه البحريَّةُ ألفَ فارس ، وكانوا يُحْسِنون من الفُرُوسيَّـة مـالا يُحْسِنُـه ممـاليـكُ مِصْر ، ويقـالُ : إنّ الـذي أغراهم بقتـل السُّلطـان وشَجَّعهم عليه ابنُ أخيه أسدُ الـدين ، ووعـدهم بمـا طـابت بـه نفوسُهم »[٢] وكان قتلُه في شهر ذي القعدة عام ٦٤٧ هـ/١٢٢٩ م في قصره في الجَنَد[٢] .

وتكثُرُ أخبـارُ العبيـد والمماليـك في دولـة بني رَسُـول[٣] التي عَرَفَتِ الازدهـارَ العلمي والمِعْمَـاري ، وشـارك كثيرٌ منهم في الحكم والإدارة ، كما

(١) راجع : السمط : ٢٠١ وما بعدها .

(٢) غاية الأماني : ٤٣٣/١

(٣) لم يقتصر ملك العبيد والرقيق على حكام بني رسول ، بل كذلك كبـار القوم والأغنيـاء في دولتهم ، فقـد ورد عنـد ابن فضـل الله العُمَري في (مَسـالـك الأبصـار) : « .. ولأكابرهـا حـظ من رفـاهيـة العيش والتنعم والتفنن في المـأكل ... وتكـون لـه الحاشية والغاشية والحبوش ، وفي بيته العدد الصالح من الإماء ، وعلى بابـه جُملـة من الخدم والعبيد والخصْيان من الهنـد والحبوش » (ابن فضل الله العُمري - ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م - ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار « القسم الخاص بمملكـة اليمن ») حققـه وقدم له : أيمن فؤاد السيد / دار الاعتصام - القاهرة (ص : ٥٥) .

ساهَمَ بعضُهم في التآمر والاضطرابات والقتل ، والتآمر على سادتهم ، ومن ذلك قيامُ بعضِهم على رأسِ جماعةٍ منهم بأعمال عُدْوانيّة على بعض القبائل للحصول على المالِ ، أو السيطرة على حِصْن أو منطقة ، كما فعل أحد مماليك المظفر الرسولي المعروف بفارِس حين وثب عام ٦٩٤ هـ/١٢٩٥ م على حِصْنٍ من حصون ذَمار في جماعة من أصحابه ، فاجتمعت عليه قبائلُ مَذْحِج فدخلوا الحِصْنَ وقتلوه وسبعينَ رجلاً من أصحابه[1] ، كما كان لبعضهم الفضلُ في استعادة المجاهد الرسولي سلطانه من يد المؤيد[2] (سنة ٧٢٢ هـ/١٣٢٢ م) كان بمعونة عبيد المؤيد[2] . بيد أن المجاهدَ في العام التالي حاصره المماليك ومعهم أكراد في مدينة تَعِزّ ، وقد أمر منادياً من حصن تعز « بإباحة المَماليك نَهْباً وقَتْلاً وأَسْراً ، فقُتِل منهم ستة عشر رجلاً وفَرَّ بقيّتُهم إلى زبيد » .

ويظهر أن أولئك الفارين قد تقوَّوْا بعبيد زبيد واستولوا عليها ، فلم تُفلحِ القوّةُ التي أرسلها المجاهد - خمسمائة فارس وستمائة راجل - بقيادة أمير يدل اسمُه على أصل تركي هو الأمير نجم الدين أحمد بن أَزْدَمِر الذي باغَتَ العبيدُ محطَّته خارجَ زَبيد « فانهزم أكثرهم وقُتِلَ من ثَبَت منهم ، ثم مالَ العَبيدُ على الأمير أحمد بن أَزْدَمِر ومَنْ كان معه فأسروهم وقتَلُوا بعضهم .. »[3] .

---

(١) غاية الأماني : ٤٤٧/١

(٢) غاية الأماني : ٤٩٥/١ - ٤٩٧ ، وراجع الخزرجي : العقود اللؤلؤية : ٢ - ٦

(٣) نفسه : ٤٩٩/١ ويذكر الخزرجي أن الأمير نجم الدين بقي أسيراً بزبيد حتى مات في شعبان من نفس العام (أي سنة ٧٢٣ هـ/١٣٢٣ م) العقود اللؤلؤية ١٢/٢ - ١٣

لقد كانت سُلْطَـة الرّسوليين بعـد مرور قرنٍ على حُكمهم قـد زالت عن أكثر اليمن الأعلى ، وهاهي ذي مهددة في تِهامة وعَـدَن على يـد المَمَـاليـك والعَبيد . فلقد استغلَّ أولئك المماليك اضطرابَ الأمور في تَعزّ على المجاهـد نتيجـة اختـلافٍ وقـع بين عسكره وأهـل تعـز ، فهبُّـوا من زَبيـد إلى تَعِـز وساعدَهم عامِلُ المُجاهِـد على لَحَج وأيْبَن عُمرُ بن أيبـك الـدَّويـدار الـذي خالف المجاهدَ انتقاماً لمقْتَلِ أبيه في الحادث السابق في زبيـد ، واستولى على عدن وقبض على عامل المجاهد بها[1] .

وإذ تغلَّب المجاهدُ على أولئك المَماليـك في تَعِزّ فقـد اضطرَّ للاستعـانـة بـأشراف تِهـامَـةَ من الْحَمْـزِيّين والسُّلَيْمانِيين لاستعـادة زَبيــد من قَبْضَـة المماليـك ، لكنهم استمرُّوا في شَنّ الهَجَمات على زبيـد بعــد محــاوَلَتِهم عَـزْلَ نـائب المُجَاهـد فيهـا حتى قَصَدَهُم المجاهـدُ بنفسـه[2] وكان الأمرُ قـد بلغ بالمُجاهِدِ أن أرسل في مطلع نفس العام (٧٢٥ هـ/١٣٢٥ م) إلى السُّلطان الناصر مُحّمَدِ بن قَلاوُون في طلب العَوْن فأنجده بألفي فـارس ومثلهم من الرجـالـة على رأسهم الأمير ركنُ الـدّين بِيْبَرْس الحـاجب[3] ، وقـد وصلوا حين كان المجـاهِـدُ بزَبِيـد حيث خرج لاستقبـالهم ، ثم اصطحبَهُم معـه إلى تَعِز ، غير أنهم شكّلوا مشكلةً وعِبْئاً على الملك المُجاهد منذ البِـدايَـة ، ففي الطريق من تِهـامَـة نهبـوا إحْـدَى القُرى و « سبـوا حريمَهـا وبـاعُـوهُنّ في

---

(١) غاية الأماني : ٤٩٩/١ ، الخزرجي : ١٢/٢

(٢) غاية الأماني : ٥٠٢/١ ، الخزرجي ٢٩/٢ ـ ٣١

(٣) المقريزي (تقي الدين) : السلوك لمعرفة دول الملوك : ٢٥٩/٢ ـ ٢٦٠ ؛ غايـة الأمـاني ٥٠٢/١

الأسواق كما يبـاع الرقيـق »[1] ثم سـاءت سيرتُهم في تعز حتى ضـاقَ بهم الناس ، ولم يَطُلْ مقامُهم حتى عادُوا من حيث أتوا بعد حوادِثَ كثيرة[2] .

وتتكرّر حوادثُ المَماليك ضدَّ سادَتِهم من الرَّسُوليين[3] ، كما استَفْحلَ أمرُ العبيد بـزَبيـد وتعـذَّر على آخر حُكّـامهم المسعـودِ (٨٤٧-٨٥٨ هـ / ١٤٤٣-١٤٥٤ م) بعد أن توجَّه إلى زبيد أن يعيدَ سلطانه عليها ، فـاستقلَّ بالأمر العَبيد « وجعلوا على كل طـائفـةٍ منهم واليـاً وحـاكِماً ، ومَرَج الأمرُ وخرِبَت مدُنُ تهامة كالمَهْجَم والقَحْمَةِ والكَدْراء ونواحيها »[4] .

وهكذا كان العبيدُ في زَبيد ، ومن ثَمَّ في تهامة شوكةً في جنب الدَّولـة الرَّسُولية تعذَّر على المَسْعُود اقتلاعُها ، وبحُلول عام ٨٥٨ هـ/١٤٥٤ م كانَتْ دولةُ بني طاهرِ الفتية قد ثَبَتَتْ أقدامُها في المِقْرانَـة ثم في عـدن ، وشـدَّدَتْ ضرباتها على مـابقي من سيطرة آل رسول ، فـأدركَ المسعودُ أنـه لن يَقْوى على الاستمرار ، فانسحَبَ إلى مَكّة واختار العُزْلَة[5] .

وجاء دورُ آلِ طَاهِرِ لمواجهةِ عَبيـد زَبيـد وكَسْرِ شوكتهم . وبـدلاً من المواجهة المباشِرَة اتّخذ آلُ طاهر السِّياسةَ أو الخِدْعةَ السياسيـةَ سبيلاً لتمزيق قوَّة العبيـد ، ومن ثَمّ الاستيلاء على زبيـد . فبعـد انعزالِ المَسْعودِ الرّسولي

---

(١) غاية الأماني : ٥٠٢/٢ ـ ٥٠٣

(٢) نفسه ؛ الخزرجي ١٢١/٢

(٣) الخزرجي : ١٢٧/٢ وما بعدها

(٤) غاية الأماني : ٥٨٤/٢

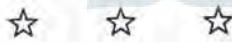
(٥) ابن الدَّيْبَع : قرة العيون ١٤٥/٢ ـ ١٤٦

وانسحابِه كاتَبَ كبارُ زبيد وأعيانُها الملكَ المُجاهد علي بن طاهر[1] إلى عدن باذلين له الطاعةَ شاكين له أفعال « عَبيد بني رسول » ، وكان لديْه في عَدَن أحدُ أمراء العبيد التابعين لآل رسول جَيَّاشُ بنُ سُلَيمان السُّنبلي الذي اتفق سرّاً على القِيام بَمَهمَّة ترتيب الاستيلاء على زَبيد دونَ مقاومة ، وقد تَمَّ ذلك ، فبعدَ التَّظاهُر بطَرْدِ جَيَّاش من عدن وإهانته ومعه نَحْوُ الثلاثين ، توجّه إلى مَوْزَع ومنها رَاسل رؤساءَ العَبيد الذين اختلفوا في الرّأي ؛ غير أن بعضَهم رضي بدخوله أمثالَ يوسفَ بن الفِلْفل ، ويدعوه ابنُ الدّيبع « بطاغيتهم »[2] ، فقد أدخله المدينة ، ولما استقرّ جَيّاش بها اتصل برُؤساء العَبيد وأظهر لهم النُّصْح ، وبعد استطلاعه أوضاعَهم وعلاقاتِهم كتب إلى المُجاهد « بانحلال أمرِ العَبيد وضَعْفِ شَوْكَتِهم ، فأجابَه يحثّه على الإفساد بينهم ، وعلى تَفْريق كلمتهم ، فلم يَزَلْ يعمل الحِيلةَ حتّى حالفَهُ عبيدُ السّيد وعبيد الشّمس »[2] ولما استوثَقَ جَيَّاش من وَلائهم للمُجاهد أرسل إليه مع « جماعة من كبراء البَلد وقُضاتها وعُلمائها ... فلما وصلتْهُ الكُتُب خرج من عَدَن ثالثَ شهر شَوّال من سنة تسع وخمسين ٨٥٩ هـ / ١٤٥٥ م إلى بلدة جبْن فجَمع الجُنْدَ ثم نَزَلَ تعزّ

(١) حكم (المجاهد) علي بنُ طاهر مشاركةً مع أخيه عامر (الأول) بن طاهر (الملك الظافر) ، وقد سَقَط عامر قتيلاً في الميدان عام ٨٧٠ هـ / ١٤٦٦ م عندما كان يحاول الاستيلاء على صنعاء ، وفي عام ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢ م تخلّى أخوه (الملك المجاهد) عن الحكم لابن أخيه المَنْصور تاج الدين عَبْدِ الوهاب ، وخَلَفه ابنُه السُّلطان عامر (الثاني) بن عبد الوهاب الذي كان أهمَّ هذه السلالة الحاكمة وأخطرهم كما كان آخر حكامها (ت ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م) .

(٢) ابن الدّيبع : قرة العيون ١٤٦/٢

فاستدعى بالعَسـاكر [من قبـائل تهـامـة][1] » وخلال شَهْرَين من إعـداد المُجَاهـد لحَمْلَتـه يَرِدُ ـ رُبَّما للمَرّة الأولى ـ ذِكْرُ اسْم « الحُـدَيْـدَة »[2] التي حالفَ شيخُها إبراهيم الثّالثي جماعةً من العَرَب على الطّـاعـة للمُجَاهـد[3] .
وما إن وصل المُجاهِدُ مدينة « حَيْس » ليلةَ عيدِ الأضحى حتَّى هَرَبَ من عَبيد زَبيد فِرْقَةٌ كانوا يُعرفون « بعَبيد فشـال » . وفي صبـاح اليَوْم التـالي جَمَعَ جَيَّاش أكابر العَبيد عنده ، وأمر مُنَادِياً أن ينادي بأنَّهـا للمُجـاهـد ، بيد أن جماعةً أخرى أنكرت عليـه ذلـك ، فتجمَّع منهم نحو أربعمائـة عنـد دارِه ودخــل إليــه نَفَرٌ من رؤســائهم ، وكان بينَهم عبــدٌ يعرف « بفَرَج جيري » حاول الاعتراضَ ، فقُتِل ورُميَتْ جثّتُه إلى أصحـابـه ، فتفرّقوا ، وانتهى أمرُ العبيد حيث دخل المُجاهـد إلى « زبيـد » في اليَوْم التـالي بغير قتال وانتشر عسكَرُه لنَهْبِ بيوتِ العبيد ، ثم مَـدّوا أيـديهم إلى نَهْبِ بيوت غيرِهم حتى مُنِعوا بعدَ حوادثَ متفرقة لا تعنينا[4] .



(1) ابن الدّيبع : ١٤٦/٢ ـ ١٤٧

(2) لم تكن الحُدَيْدَة من المدن القديمةِ المعروفة في تهامـة ، ويـذكر ابن الـدَّيْبَع أن المماليـكَ المصريين خرَّبوها عـام خروجهم إلى اليمن (٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م) (ص : ٢ ، ٢٢٤) ، وقد تطوَّرت الحُدَيْـدَة بعـد ذلـك كثيراً في العصر الحـديث ؛ وبصفتهـا ميـنـاءً ومركزاً تجاريـاً فقـد استقبلت عـدداً كبيراً من غير اليمنيين من بينهم هنودٌ وأتراك وأحبـاش ، ولا زالت قلة من الأحبـاش تشكل مجتمعـاً منعزلاً شبـه مغلق (ghetho) . راجع عن هذا الحجري : مجموع بلدان اليمن وقبائلها : ٢٥٠/١ ـ ٢٥١

(3) ابن الدّيبع : ٢٢٣/٢

(4) ابن الدّيبع : قرة العيون ١٤٧/٢ ـ ١٤٨ ؛ غاية الأماني : ٥٨٦/١ ـ ٥٨٧

لم يَزِدْ حُكْمُ الدَّولة الطَّاهرية على سِتّين عاماً وبضع سنين ، طالَ حُكْمُ آخرِ سلاطِينها وأهَمِّهم عامر بنِ عَبْد الوهاب تسعاً وعشرين سنةً ، ولم تقم لعبيد زَبيد قائمة بعد هَزِيمتهم الأولى ، باستثناء حوادث متفرقةٍ في تِهامة[1] كان يتم القضاء عليها ، واستخدم الطاهرِيُّون بعضَ مماليكهم العَبيد ولاةً وقادةً عسكريّين ؛ ففي تغييرات إدارية وقَضائية أجراها السّلطان عامرُ بنُ عَبْد الوَهاب عام ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ م ، كان منها فَصْلُ « بني العَنْسِي عن ولاية زبيد » وتعيين الأميرين « رَيْحَان وعُمَر الجبني » ـ وهما ملكان ـ على زبيد ، الأول « قابضاً وناظراً » والآخر أميراً بها[2] ، واستمرَّ رَيْحان الصلاحي بعد ذلك أميراً على زَبيد لخمسِ سنوات حتى عُزِلَ بأحد الأشراف ، في حين كان أميرُ عَدَن خلال ذلك (مَرْجان الظافري) ـ نسبة إلى سيّده السلطان الظّافر عامر بن عَبْد الوهاب ـ[3] ، وقد عاد النَّقيب (الأمير) رَيْحان الصَّلاحي نفسُه بعد ذلك بسنوات إلى زبيد مستخلصاً للضرائب حيث مات بها في رمضان سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م[4] .

وحين قَدمَتِ الحملةُ المَمْلوكية من مِصْر بقيادةِ حُسَيْن الكُرْدي لمحاربةِ البُرْتُغال في البحر الأحمر أواخر عام ٩٢١ هـ / ١٥١٦ م اتَّخذت من كَمَران محطةً لها ، ودخلت قوةٌ مَمْلوكيَّة قريةَ الحُدَيْدَة ـ فخَرَّبَتْها بعد أن هرب

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون (على سبيل المثال) : ٢٠٧/٢ ، ٢١٢ ، ٢٢٠

(٢) ابن الديبع : ٢٠٢/٢

(٣) نفسه : قرَّة العيون ٢١١/٢

(٤) نفسه : ٢١٩/٢

أهلُها وأُخلِيَتْ من السكان ، وعن طريق « اللّحَيَّة » نزل مائةُ مملوكٍ تقدّموا ناحية « مَور » التي كان أميراً عليها محمد بن سليمان بن جياش السنبلي - حفيد ذلك المَمْلوكِ الذي ساعد آلَ طاهرٍ في الاستيلاء على زَبيد من يَدِ العَبيد - وشاءت الأقدار أن يكونَ ذلكَ الحفيدُ الذي خرج لِمُواجَهَةِ المَماليك على رأس من قُتِلَ من جماعته ببَنادِق المَماليك المصريّين التي دخلت اليمن معهم لأول مرة ، ولم تَكُنْ معهودةً من قبل[1] .

لقد كان ذلك بدايةَ النهايةِ ، ففي مُنْتَصف العام التالي (٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م) تَمّ احتلالُ زبيد ، وفرّ الشيخُ عَبْدُ الملك بنُ عبد الوَهاب إلى تَعِز . وعَيّنَ الكردي أخاه بَرْسَباي حاكماً ، وحينَ حاول السلطانُ عامِرُ بن عَبْدِ الوهاب استعادة سُلْطانِ آلِ طاهر من يَد المَماليك الذين باتوا على أبواب صنعاء لحق بهم ، فكان قتله وقتل أخيه عَبْدِ الملك معاً خارج المدينة التي سقطت في يد المماليك وعاثوا فيها فساداً (ربيع الثاني ٩٢٣ هـ / مايو ١٥١٧ م)[2] وانقرضَتْ بذلك دَوْلَةُ بَني طاهِر ، ودَخَلَتِ اليَمَنُ فترةً جديدةً من تارِيخِها .



(١) ابن الدّيبع : قرة العيون ٢/٢٢٤ - ٢٢٥

(٢) ابن الدّيبع : ٢/٢٣٢

٤ ـ الأُمراء العبيد في العصر الحديث

« كانَ بعضُ الأُمراءِ العبيدِ مَهيباً ، وذا قُدْرَةٍ قِتاليَّةٍ مُمْتازة ، كما أنّ بعضَهم الآخرَ تفقّهَ وتأدَّب ، بل وتمذْهَب ... »

(انظر ص : ٥٨)



٤) الأمراء العبيد في العصر الحديث

لم يكن أمامَ حُكْمِ المماليك القَصِيرِ من خَطَرٍ يواجهونَه إلاَّ حُكْم الأئمة في الشمال فقد كانوا ينازعون الطاهِريّين ومَنْ سبقهم الحُكْمَ على اليَمَن ، كما كانوا كذلك في ظل الوُجود العثماني .

وبعد الاستيلاء على صنعاء ورَدَ خبرُ دُخول السُّلطان سَلِيم الأول مِصْرَ ، فأعلنوا دخولَهم في طاعَتِه ، حتى جاءَ العُثْمانِيُّون الأتراك عام ٩٤٥ هـ / ١٥٣٨ م ، فكانَتِ اليمنُ قَرابةَ قَرْنٍ (حتى ١٠٤٥ هـ / ١٦٣٥ م) جزءاً من الامبراطورية العُثمانية .

لقد استخدَمَ الأئّمّةُ المُعَاصِرُون ـ كما مَرَّ مَعنا ـ العَبيدَ حُرَّاساً ومُسْتَخْدَمين وقادةً عسكريين وولاةً على بعض المناطق والنواحي .

فمن قادةِ النَّاصر بنِ مُحَمّد (ت ٨٦٦ هـ / ١٤٦٢ م) المعاصِر لظهور بَني طاهر ، مملوكُه ريحانُ بنُ سَعِيد الذي خاضَ مع سَيّده حُرُوباً حولَ صنعاء حتى قُتلَ فيها عام ٨٦٠ هـ / ١٤٥٦ م[1] ، كما نَجدُ أنّ مِنْ بَيْن قادةِ المطَهَّر شرفِ الدّين (ت ٩٨٠ هـ / ١٥٧٢ م) الذي دوّخَ الأتراك في

---

(١) غاية الأماني : ٥٨٧/٢

حروبه ضِدّهم ، أمراء عبيد ، كقائِدَي عَسْكَرِه في طَيْبَة « بُنْيان والأمير جَوْهر » وعامِل حَراز « النّقيب مُبارَك شعبان »[1] وغيرهم .



لقد انْتَقلَ الحُكْمُ بعدَ وفاة المُطَهَّر من آل شَرَفِ الدّين إلى أسرةِ القَاسِم بن مُحَمّد (١٠٠٦ ـ ١٠٢٩ هـ / ١٥٩٧ ـ ١٦٢٠ م) حيث انسحبَ الأتراكُ من اليَمَنِ في عهد المؤيّدِ مُحَمّد (ت ١٠٥٤ هـ/١٦٤٤ م) ابن مؤسس حكم هذه الأسرة ؛ وعادُوا ثانيةً عام ١٢٦٦ هـ / ١٨٤٨ م ، وقُبَيْلَ ذلك بعَقْدٍ احتلَّتْ بَريطانيا عَدَناً في ٥ ذي القعدة ١٢٥٤ هـ / ١٩ ينـاير ١٨٣٩ م . وخلالَ تلكَ الحِقْبَة التي تجاوَزتْ قَليلاً قرنين منَ الزّمن كانَتْ فيها اليَمَنُ كاملةَ الاستقلال[2] حكَم عددٌ من الأئمة من « بَيْت القَاسم » امتدَّ حُكْمُ بعضِهم ليشمل اليَمن الطبيعيّةَ جَنُوباً وشمالاً حتى حدودِ الحِجاز (كما كان في ظل المتوكل على الله إسماعيل (ت ١٠٨٧ هـ / ١٦٧٦ م) الإمام الثالث من هذا البيت)[3] وانْجَزَرَ في فترات متأخّرة لتنحصر

---

(١) غاية الأماني : ٦٩٢/٢

(٢) سيطرت قُوات والي مصر محمد علي باشا على ساحل تِهامة خلالَ حُروبه في الجزيرة العربية (١٨١١ ـ ١٨١٨ م) واستعادَت صنعاءُ سيطرَتَها عليها عام ١٢٣٤ هـ / ١٨١٩ م ، وقد عادَتِ القُوّاتُ المِصْرية ثانيةً عام (١٢٥١ هـ / ١٨٣٥ م) وانسحبتْ نهائياً عام ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م .

(٣) يذكر المؤرخ الحيمي سفير هذا الإمام إلى ملك الحبشة سنة ١٠٥٧ هـ / ١٦٤٧ م أن من جملة الهدايا التي أرسلها الأخير للمتوكل إسماعيل عشرين عبداً (ص ٣٥ من الطبعة الألمانية وراجع ص ٢٦ وحاشية ٣ فيما سبق) .

سيطَرَةُ الإمام عَلَى صنعاء وما حَوْلَها[1] . وكيفما كان أمرُ تلك السَّيطرةِ واتساعِها ، وقوة أولئك الأئمة أو ضعفهم فقد ملك مُعْظَمُهم - إن لم يكُنْ جميعهم - عدداً متفاوتاً من العَبيد الذين كانوا يتوارَثُونَهم أو يَشْتَرُونَهم - حيث لم تتوقّف تجارةُ الرّقيق - ، وكانُوا يتَسَرَّوْنَ أو يتزوجون بجوارٍ - أغلَبُهُنَّ حبشيات - ، كما كانُوا يستعينونَ ببعض المَوْثُوقِ بهم في الإدارة (العمالة) والجَيْش كما سيأتي معنا ذاكرين هنا ثلاثة من عبيد المتوكل إسماعيل مثالاً يتكرر في دولة الأئمة من (آل قاسم) فالنقيب سعيد بن فرحان كان من مماليكه الذين أعتقهم ، وولاه عمالة المخا ، ثم ولاية بيت المال التي كان عليها إلى آخريات أيام المتوكل[2] . والثاني عثمان بن زيد الذي كان من قادة العسكر ، ويذكر لنا المؤرخ حنش (ت ١٠٨٠ هـ = ١٦٦٩ م) معاصر المتوكل إسماعيل ، أنَّ من المهام التي كُلّف بها إرساله على رأس خمسمائة من العسكر في شهر رجب ١٠٧٧ هـ / يناير ١٦٦٧ م ليحقق في قضية تزوير خط المتوكل لعزل واليه على حضرموت ، ويبدو من حصافته تصرفه في الموضوع وإنهاء الأمر باجتهاد خاص جنبه الاقتتال والأخذ والرد مع سيده في العاصمة صنعاء[3] . أما

---

(١) راجع كتابَنا : فتْرَة الفَوْضى وعَوْدَة الأتراك إلى صنعاء (دار الفكر - دمشق ١٩٨٥ م) .

(٢) ابن الوزير : طبق الحلوى (ص : ٢٩١) ؛ حنش : النور المشرق في فتح المشرق (ص : ٨٥) .

(٣) أحمد بن عبد الله حنش : النور المشرق من فتح المشرق وما به ألحق ، تحقيق عبد الله الحبشي (بيروت ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦) ص : ١١٣ - ١١٤

الثالث فهو الحاج فرحان عبد الله الذي ترجمه صاحب (بغية المريد)[1] بقوله « كان هذا المولى عبداً صالحاً ، خدم مولاه [المتوكل إسماعيل] من سن الصغر إلى المشيب ، وكان آخر مدته أمير الحج إلى بيت الله الحرام ، فتردد أعواماً كثيرة أيام المتوكل - على ذهني أنها خمس عشرة حَجّة - واشتهر ذكره في مكة ، وعرفته الأشراف وأمراء الأروام ، وكان له ذكر جميل ، وعاش إلى دولة الإمام الناصر ثم توفي رحمه الله ، وقبر في حجرة مشهد المتوكل » . لقد كان للحاج فرحان مكانة خاصة عند المتوكل فرئاسة (إمارة) الحج من المناصب الهامة ، وكثيراً ما كان يكون معه شخصيات وأمراء من البيت الحاكم ، بل ولأن سلطة المتوكل امتدت إلى الحجاز فقد كان محمل الحاج اليماني يأخذ أهبة خاصة وتحمل العطايا لأهل الحرمين ، ففي موسم عام ١٠٧٧ هـ / ١٦٦٧ م كان مع الأمير الحاج فرحان وصحبه « اثني عشر مئة من الرماة ولحق بهم مثلهم من سائر الناس .. »[2] . وقد كان بعضُ الأغنياء ومسؤولي الدّولة يَمْلُكون أيضاً أفراداً من العبيد غالبُهم في خِدْمة المنازل أو المَزارع ، كما في تِهامة بشَكْل خاص ، ومهما كانَ عددُ أولئك العبيد - مع الأئمة أو غيرهم - فلم يكُنْ - بالتأكيد - يتجاوز أرقاماً متواضِعةً في كل جيل لا نستطيع للأسف تحديدَها بدقة[3] ، وهذا ما يجعلُنا نشكُّ كَثيراً في الأرقام التي ساقَها

(١) (مخطوط) بغية المريد وأنس الفريد لعامر بن محمد الرشيد (ق ١٤٩) .

(٢) حنش : النور المشرق (ص : ٣٥ ، ١١١) ؛ طبق الحلوى لابن الوزير : ١٤٩ ، ٢٢٦

(٣) ألحقنا بهذا البحث قائمة لأشهر الأمراء العَبيد خلالَ حكم المَهْدي عَبّاس وابنه المَنْصور علي أي بين عامي (١١٦١ - ١٢٢٤ هـ / ١٧٤٨ - ١٨٠٩ م) .

المستشرقُ الفرنسي جـان دي لاروك Jean de la Roque في وصفـه لبلاط الإمام المَهْدي محمدِ بنِ أَحْمد (ت ١١٣٠ هـ / ١٧١٨ م) حين زيارةِ البعثة الفرنسية له في مـدينـة المواهب (شرقي ذمـار) في مطلع عـام ١١٢٤ هـ / فبراير ١٧١٢ م ، فقد قال :

« ... ويقـالُ : إن في قَصْرِه نحـوَ **ستمائـة أو سبعمائـة امرأة** يعشن في سَرَايـا خـاصّـة بهنّ ، **وهُنَّ من جِنْسيّـات مختلفـة** ، ولكن يـؤكّـد بعضُ العارفين أنّ أكثرَهُنّ من الشّركسيات المشهورات بجَمَـالِهنّ . وهنـاك عـددٌ من النّساء العَرَبِيّات وهُنَّ شديداتُ البَيَاض ! »[1] .

إن سببَ الشـك يرجـع إلى أنّـه لم يكُنْ لأحـدٍ ممَّن حكم اليمن أيُّ عـددٍ مثلِ هذا أو قريبٍ منه ـ حتى دولة بني نَجَـاح نفسِهـا التي اعتمـدت قوَّتَهـا على العَبيد ، وأكثر من ذلك فلعلَّ ذلك الإمام الذي كان صاحِبَ شخصيـةٍ عجيبـةٍ متنـاقِضَـةِ الأهواء ، لم يكن عنـدَه مثلُ ذلـك العَـدَدِ من الجُنُود أو العَسْكَر حينما حاصَرَه في مدينة المَوَاهب إمام آخر بعدَ زيارة تلـك البِعْثَـةِ بخَمْسِ سنـوات ؛ واضطرَّ لخلـع نَفْسِـه عـام ١١٢٩ هـ / ١٧١٧ م وتـوفي في العام التالي[2] .

درج آل القـاسم على تحرير بعض ممـاليكهم ، وكانـوا يمنحـون لقبَ « أمير » وأحياناً « نقيب » لمن يتبوَّأ منصباً في الجَيْش ، فهو « أميرُ الجُنْد »

---

(١) رحلة إلى العربيـة السعيـدة (١٧١٦م) ، عن مقـال للـدكتور يُوسف شُلْحُـد (مَجَلَّـة دراسات يَمنية : العدد ١٨ / شتاء ١٩٨٤ م ؛ ص : ٦٧ ـ ٨٠) .

(٢) الشوكاني : البدر الطالع ٩٧/٢ ـ ١٠١

ومن نال حُظوةً في الحاشية فيضاف إلى اسمه . وكانت أسماؤهم ـ شأنهم شأنُ كثيرين قبلَهم في اليمن وغيرِه ـ تغلُبُ عَلَيْهـا أسماءُ الأحجـار الكريمـة ، كيَاقوت ، وفَيْرُوز ، وجَـوْهَر ، ومرجـان والمـاس . أو الطِّيْب ، كعَنْبر ، وكَافُور ، ومِسْك وما شـاكل ذلـك إلاَّ مـا نـدر كسَعْـد وفَتْح وفَرَج . وكان اسمُ المالكِ يُضاف إلى الاسم الأول كفَيْروز المُتَوَكّل ، ياقوت المَهْدي ، فَتْح الهَادي .. وهكذا إلاّ القليل ممن يكون والدُه مملوكاً سابقاً معروفاً كفَرْحان صَـالـح ، وسُلطـان حسن ، علي فَتْـح سُرور .. وهلمّ جرا . ويغلبُ على الظن أنّ السببَ الرّئيسَ في تـوليـة هـؤلاء العَبيـد المنـاصبَ العسكريَّـةَ وبعضَ المناصِب الهامَّة هو الوَلاءُ والطَّاعَةُ المؤكَّـدة لسـادَتِهم من نـاحيـةٍ ، وسهولـة عَـزْلِهم ومُصَـادرة أمـلاكهم في أي وقت ، وبخـاصَّـة أنـه ليس لهم جُـذور قَبَليَّـة يستنـدون إليهـا ، أو دَعَـاوى سيـاسيـة يُمكنُهم بهـا الاتّكاءُ عليها . وليس من شكّ في أن بعضَهم كان مهيباً وذَا قُدْرَة قتالية مُمْتـازة ، كما أن بعضَهم الآخر تفقَّه وتـأدّب ، **بل وتمـذهب**[1] ، ومن هـذا على سبيل المِثال ماأثاره من فِتْنَةٍ بينَ الشِّيعة وأهل السّنة في صنعـاء عـام ١٢١٠ هـ / ١٧٩٦ م عَبْدٌ مملوكٌ لعبـد الله بن المَهْـدي عَبّـاس اسمـه سَنْـدَرُوس الحَبَشي الـذي كان مُغَـالِيـاً في التشيـع ، فكان كلمـا لقي عَبْـداً آخر للمَنْصـور بن المَهْدي يُـدْعَى سُلطـان الحبشي يَلعنُ معـاويــة ! فيتغَـاضَى الأخير حلْماً وصبراً ، حتى التقيـا ليلـةً ببـاب مسجـد التَّقْوَى ببُسْتـان السلطـانِ فصرَخ سَنْـدروس بلَعْنِ معـاويـةَ وتشـاجرا بـالسّلاح ، وتطـوَّر الأمر ، وتجمعتِ

---

(١) العمري : مئة عام من تاريخ اليمن الحديث : ٦٥ ـ ٦٦

العامّة وثارت فيما يشبه المُظاهرات ، وارتفع الصّراخُ بلَعْنِ معاويةَ ، وهوجمت منازلُ بعضِ أهل السُّنّة ، ولم تتوقّف أعمالُ الشَّغْبِ إلاّ في وقتٍ متأخر من الليل بعد تدخّل العسكر[1] .

لقد كان تَمَذْهُبُ العَبد - في الغالب - راجِعاً لِمَذْهب سَيِّده ، ورغم أنّ الخلاف العقائدي - أو الْمَذْهبي - في إطار الزّيدية القريبةِ إلى مذهب أهْل السنة كان نادِراً وقليلاً مَثَّلَه المتعصبون والْجَهَلَة منهم ، إلاّ أن مِمّا له دلالةٌ في هذا الصدد أنه لَمّا سُجِن العلاَّمة الكَبير محمد بن إسماعيل الأمير (ت ١١٨٢ هـ / ١٧٦٩ م) في عصر الْمَهْدي عَبّاس (١١٦١ - ١١٨٩ هـ / ١٧٤٨ - ١٧٧٥ م) لسببٍ له علاقةٌ بالمتَعَصِّبين حين كان ابنُ الأمير يُمَثِّل زعامةَ الاتّجاهِ الزّيدي التحرّري ، كان الأميرُ ألماس الْمَهْدي[2] (مملوك

(١) لطف الله ححاف : مخطوط (درر نحور الحور العين) ق : ٢٥٢ - ٢٥٣

(٢) كان الأمير ألماس ذا نفوذ عند المهدي عَبّاس ، وكان خلافُه مع العلامة القاضي يحي السحولي (ت ١٢٠٩ هـ / ١٧٩٥ م) قاضي القضاة ، أحد أسباب سجن الأخير ومصادرة أملاكه عام ١١٧٢ هـ / ١٧٥٨ م ، ولعله هو نفسه قد غضب عليه سيده المهدي فسجن في العام التالي (الشوكاني : البدر الطالع ٣٣٤/٢ ، وراجع العمري : مئة عام : ٦٢ - ٦٣) وقد أفادنا الأخ الصديق السفير الأستاذ علي أحمد الخضر ، وهو مرجع في التراث والفن ، بأن الفنانين المعاصرين من آل الماس ممن اشتهروا بالغناء الصنعاني في عدن منذ الأربعينات من هذا القرن أمثال إبراهيم محمد الماس وولده وعمه عبد الرحمن هم من أحفاد ذلك الأمير الماس ، وينقل الاستاذ الخضر الرواية عن والده بالتواتر ، وبأن الأسرة استقرت في عدن ولا يستبعد أن ذلك قد تم أيام المهدي عباس حين كانت سيطرة صنعاء قائمة على الجنوب بما فيها عدن .

المهدي عَبّاس) - الذي ربما كان موكَّلاً بالسّجن أو سَجيناً - يتتلمذ في الْحَبْس « مع عَبيده » على يد العَلاّمة ابن الأمير : « ومال إلى مَحَبّة السُّنَّة النَّبَويـة والعَمَل بها ، ورافَقَتْه جماعةٌ من عَبيده وغيرِهم ، ولازَم البدرَ [ابنَ الأمير] للقراءَة عَلَيْه في مؤلّفاته وغيرِها ، وبذَلَ جَهْدَه في نَشْرِ السنة النّبوية إلى أن وافاهُ الحِمامُ في السّجن في شهر رمضان سنة ١١٧٣ هـ [١٧٦٠ م] »[1] .

ولا نَدْري ما إذا كان الأميرُ أحمدُ أَلْماس عَبْد الرحمن المتوفَّى سنة ١٢٠٨ هـ/١٧٩٤ م هو ابنٌ للأمير السابق أو هو تابع له أو هو أَلْماس آخر ، لكنه كان مملوكاً لابن المهدي عَبّاس المنصور علي ، وما يهمُّنا ذكرُه هاهنا هو أنّه كان للأمير أحمد أَلْماس هذا مملوك صار له شأنٌ كبير في الفقه ، وعِلْم القراءات ، والنَّحْو ؛ ذلك هوَ الشيخُ العلامة ، المقرئُ ياقُوت أحمد الحَبَشي الذي كان من أَصْحَابِ المتوكِّل أحمد بن المنصور علي (ت ١٢٣١ هـ/١٨١٦ م) ، واعتَمَد عَلَيْه مدَّةً في (قَصْرِ صَنْعاء) ، وكان « مُلْتَفِتاً إلى العلم وحُضور مجالسه وحِلَقِ التّدريس فيه » فاستفادَ من ذلك كثيراً ثم أخذ علومَ الفقه والعربية والقراءات على كبار مشائخ صنعاء - بعضُهم أساتذة الإمام الشوكاني ومشايخه - وربما زامل الشوكاني ؛ وأصبحَ « شيخ مشايخ القُرّاء ، والإمام المرجوعَ إليه بصنعاءَ في علْم القراءاتِ السّبْع والثّلاث الشّواذّ ، وعكف على التّدريس في عِلْم النّحو وغيره ،

(١) الحوثي (مخطوط مكتبة علي أميري M.2399) : ٣/٣٢٩

واتّفق النّاسُ على الثّناء عليه ، والاعتراف بتحقيْقه ووَرَعِه وزُهْدِه وتَدْقيقه .. »[1] وقد تُوُفي بصَنْعاء سنة ١٢٤٧ هـ/١٨٣٢ م « وظهرَتْ ورَقَةُ عِتْقه من الأمير أحْمد ألماس فكانَ الوَليَّ لورَثَته »[1] .

وفي العَوْدَةِ إلى التَّعَصُّب يذكر لنا العلاّمة شيخُ الإسلام الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤ م) حادِثَ فتنةٍ شبيهاً بالحادِث السّابق وقع في عام ١٢١٦ هـ / ١٨٠١ م كان على رأسه أحدُ عبيد الإمام المنصور علي بن الْمَهْدي عَبّاس (ت ١٢٢٤ هـ / ١٨٠٩ م) اسمُه ضِرْغام : « رأس ماله الاطلاع على بعض كتب الرّافضة الْمُشْتَمِلة على السّبِّ للخلفاء وغيرِهم من أكابر الصَّحابة ، فصار هذا [ضِرْغام] يعْقد في الجامع ويُمْلي سَبَّةَ الصَّحابَة على من هو أجهل منه .. »[2] .

فكان ذلك سبب فتنةٍ نصحَ الشوكاني لتدارِكها بحَبْسِ ضِرْغام وأمثاله .

وعلى عكس أمثال ضِرغام فقد بلغَ وَرَع بعض من أولئك العبيد غير ماذكرناه عن العلاّمة ياقوت أحمد الحَبَشي ، أن أحدهم ويدعى الشيخ ألماس بن عبد الله الْحَبَشي الذي كان من مَماليك بيتِ المال ، أنه لم يَعْتَدَّ بعِتْق الْمَهدي عبد الله له حَتّى نفذ عِتْقه العلاّمة محمد بن عبد الله الوَزير سنة ١٢٦٩ هـ / ١٨٥٣ م وكان هذا الشيخُ عالِماً كبيراً ، فاضلاً ، له تلاميذُ

---

(١) زبارة : نيل الوطر : ٣٧٤/٢ ـ ٣٧٥

(٢) الشوكاني : البدر الطالع ٣٤٧/٢

معروفون ، وقد مات في سنة ١٢٩٨ هـ / ١٨٨١ م[١] .



لقد كان آخر أَهَمِّ الأئمة من أُسرة آل القاسم ، المهدي عَبّاس الذي كان أَلماس الأول من مَماليكه ، أوضح الأمثلة في كَثْرة المماليك واستخدامه لبعضهم في الجيش والإدارة . وقد خَلّف لنا الرّحالة ، العالم الألماني المشهور كارستن نيبور (ت ١٨١٥ م) وصْفاً طريفاً ومفيداً لبلاط المهدي عَبّاس الذي استقبلَه في قَصْره في صنعاء في ٧ محرم عام ١١٧٧ هـ / ١٩ يوليو ١٧٦٣ م ، وكيف أن نيبور لم يتمكّن من شَقّ طريقه عبر ساحَةِ القَصر إلاّ بمساعدة « النَّقيب جار الله » الذي كان عبداً وبات رئيس الْخَيّالة ، وفي وصفه للْمَهْدي عَبّاس يذكر لنا نَيْبور أن لون بَشَرته كان « قريباً من لَوْنِ أُمّه السّوداء التي كانت جارِيةً لأبيه فتزوجها »[٢] ولم يَكُنْ هذا الأمرُ غريباً فكثير من الأئمة في اليمن وغيرِهم من الْخُلفاء العَرَب كانوا يتزوَّجون بجوارٍ ذات أصول حبشية أو شركسية أو غير ذلك كما سبق أن ذكرنا .

خَلَفَ المنصورُ عليّ والدَه المهدي عَبّاساً عام ١١٨٩ هـ / ١٧٧٥ م[٣] ، ولم يُغيّر في فترة حكمِه الأولى أمراءَ الأجناد الذين كانوا على عَهْد أبيه ،

---

(١) زبارة : نيل الوطر ١٩١/٢ ـ ١٩٣

(٢) Niebuhr, Travels Through Arabia : I, 368 - 72

(٣) انظر عن حكمه كتابنا : مئة عام (ص : ٥١ ـ ١٤٧) .

وكان أهمَّهم الأميرُ فيروز (ت ١٢٠٢ هـ / ١٧٨٨ م) والنقيبُ رَيْحانُ الذي تُوفّي في الفترة نفسها تقريباً ، وبوفاتهما عَيّن بدلاً منهما من عبيده الأميرَ سروراً والنقيب جوهراً ، بَيْد أنهما لم يَلْبَثا أن عُزلا بعد وَقْتٍ قصير[1] وقد كان المنصورُ متقلّبَ المِزاج شديدَ العِقاب لوزرائه وموَظّفيه خاصة العبيد منهم ، ومن ذلك تنكيلُه بالأمير « عَنْبر المهدي » عام ١١٩٧ هـ / ١٧٨٣ م فقد عزله من عَمَلِه في اليمن الأسفل وصادر أملاكه ؛ وإمعاناً في إهانته « أمر بإحضاره تحت طاقته بدار الفتوح وجَرّده من ثيابه وأمر بضَرْبه وإسكانه ملَّةَ الْحَمّام[2] مُبالغاً في تعزيره ، فبقي بها شهراً .. ثم أخْرجَه من الملّة وأوْدَعه السّجن »[3] .

إن مثل ذلك الضّرب والإهانة لم يقع على أحد من غير العبيد في الواقع ، ولعل السبَبَ الْمُباشِرَ لذلك هو الأموال الكثيرة التي حصل عليها عَنْبَرٌ ورفضُه مشاطرةَ سيِّده له فيها ! كما يذكر مؤرّخ المنصور لطف الله جَحّاف (ت ١٢٤٣ هـ / ١٨٢٨ م) . وهناك حوادِث أخرى مشابهةٌ لإخفاء بعض الأمراء العبيد (في دولة آل القاسم) للأموال التي كانوا يحصلون عليها (ظُلماً في الغالب) ، فالمؤرّخ ابنُ الوزير (ت ١١٤٧ هـ / ١٧٣٥ م) يذكر لنا أن مملوك الأمير الْحَسَن بن القاسم

---

(١) الشوكاني : البدر الطالع ٤٦١/١

(٢) مَلّة الحمام : مَخْزن مكتوم يقع تحت الْحَمّام (العام) ويُخْزَن فيه وَقوده الذي كان إلى وقت قريب من الروث والفضلات التي تجمع من بيوت المدينة و « المَلَّة » في الأصل تعني : الجَمْر والرماد الحار ، وتلفظ في اليمن بكسر الميم .

(٣) جحاف (ق : ١٢٤) وراجع : مئة عام ٧٧

(ت ١٠٤٨ هـ / ١٦٣٨ م) النقيب سعيد رَيْحان الملقب بالرئيس كان قد تَبوّأ عدّةَ مناصب منها ولاية الْمَخا الهامّة ثم يَرِيم التي توفي فيها عام ١٠٨٠ هـ / ١٦٧٠ م ، كما سبق أن اختير مرة لإمارة الحاجّ اليمني وذلك « لكماله واستمرارِ حُسْن أحواله » ، وبعد مَوْتِه « قبض مالاً خطيراً أوصى به لجانب بَيْت المال »[1] .

وفي العودة إلى المنصور علي ومماليكِه الأمراء في الإدارة والجيش نجد أنه بالإضافة إلى ظهور بعضِ القادةِ منهم في حَمَلاتٍ عسكريّة أمَّرَهم عَلَيها كالأمير سُرور في مواجهة الإمام الخارج عليه عليّ بن أحمد بن إسحاق (ت ١٢٢٠ هـ / ١٨٠٥ م) وقيادته للحروب ضده[2] ، والأمير ناجي وآخرين ، نجد أنه قد عزل يسر بنَ ألماس عن ولاية زبيد عام ١٢٠٤ هـ / ١٧٨٩ م[3] ، وعَيّنَ على حَراز الأميرَ سَعْدَ بن زياد في عام ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣ م[4] وغيرَهما في فترات أخرى . ولعل عَزْلَه في بدايةِ حُكْمه لأحد أولئك الأمراء العبيد ينِمُّ عن وجه آخر لشخصيةٍ عجيبةٍ فاسدةٍ من أولئك الولاة العبيد .

فقد قام المنصورُ بعزلِ عاملِ الحُدَيْدَة الأمير « سعد » الذي كان في

---

(١) ابن الوزير : طبق الْحَلْوى (تحقيق محمد عبد الرحيم جازم ، مركز الدراسات اليمنية ١٩٨٥ م ، ص : ١٣٣ ، ١٣٢ ، ٢٩١) .

(٢) الشوكاني : البدر الطالع ٤٢٧/١

(٣) جحاف : (ق ١٧٥) .

(٤) نفسه : (ق ٣٣٢) .

الأصل عبداً ليحْيَى العلفي[1] ساعـدَه في كثير من المَنَـاصِب الإداريـة التي شغلها ، ولمّا توفي العُلَفي عيَّنه المَهْدي عَبّاسٌ عاملاً على « رَيمة » وبعـدَهـا في مناطق أخْرَى في تِهـامـة ، وقـد أعطـانـا جَحّـاف عن الرّجل وأخبـاره صورةً عجيبةً . فلقد كان شُجـاعـاً ، غنيّـاً ، سَخِيّـاً ، إلاَّ أن سُمْعَتَـه كانَتْ سيّئة ، فقد نُسبَتْ إليه صناعةُ المُرَكّبات من المَعاجين المُخَـدِّرة ، والأشربـة المُسْكِرة ، وأنه كان يتّخذ المماليكَ الحِسان لخِدْمَته ، فكانوا يدورون بتلـك المَعاجين والأشربة على ضُيُوفه من تُجّار وكُتّاب بيت المـال وغيرهم . فكأنَّ الكاتبَ « بصيرٌ كالأعْمَى لا يفرّق بينَ الاسم والمُسَمّى ، فيكتُبُ كما شـــاءَ الأميرُ ويفوتُه من الحاصِل الكَثير »[2] وكان لسَعْد قدْرَةٌ عجيبةٌ على حَجْب أخباره وأموره وفسـاد إدارتـه عن المهـدي عبـاس . وسَرَد جحـاف قصصـاً كثيرةً حتى تمكَّن المهدِيُّ من معرفة بعضِ ذلك ، فعزلـه وصـادر أملاكَـه . ومع ذلك فقد أُعيدَ بعد سنوات لعمالة « ريمة » ، ثم « الحُدَيـدَة » التي عزل منهـا أخيراً في الأيـام الأولى من حُكْم المنصور ، ومـات بعـد ذلـك بنحـو أربعة أشهر (٥ من ذي القعدة عام ١١٨٩ هـ / ٢٧ ديسمبر ١٧٧٥ م)[3] .



---

(١) آل العلفي : أُسرة برز منهـا في هـذا العصر إداريـون ووزراء وقضـاة ، وكان لبعضهم عبيد اشتروا بعضهم خلال أعمالهم الإدارية في مناطق تهامة (راجع عنهم كتابنـا مـائـة عام ، والشوكاني البدر الطالع : ٤٦٥/١ ـ ٤٦٧) .

(٢) جحاف : (ق ١٤) .

(٣) جحاف : (ق ١٤ ـ ١٧) ، وراجع : مئة عام : ٦٦ ـ ٦٧

٥ ـ تجارة الرَّقيق

بين الغرب والشَّرق

(حتى نهاية القرن التاسع عشر)

« إنّ الإنسانَ يولَدُ حُرّاً ، لكنَّه لا يَلْبَثُ
أن يكبَّل في الأغلال »

(جان جاك روسُّو)
(ت ١٧٧٨)

٥) تجارَةُ الرَّقيق بينَ الغَرب والشَّرق

حتى نهاية القرن التاسع عشر

مضينا في استعراضِنا التاريخي حتى بُعَيْد حُكْمِ المَنْصُورِ علي (ت ١٢٢٤ هـ / ١٨٠٩ م) وسنعودُ إلى استكمالِ هذه النظرة التّاريخية لنصل بها في خاتِمةِ المطاف إلى إعلان اليمن « مَنْع تجارةِ الرّقيق » عام ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٤ م وحَتَّى نهاية حكم الإمام يحي حَمِيد الدّين (١٣٦٧ هـ/١٩٤٨ م) ، وذلك بعد إلقاء نظرة على تَطَوُّر أحوال الرِّقّ بين الشرق والغرب بعد أن جَعَلَ منه الأوربيون تجارةً أبيح فيها القَرْصَنَة في البِحَار والسّطْوُ على شُعوب القارة السّوداء ونقل أبنائِها مستعبدين إلى العالم الجديد .

لقد مضتْ قرون طويلة على عَالَم الغَرب منْذُ الرّومان وقوانينهم والشّرَائع القَديمةِ التي كانت تَعْتَبر العَبدَ الرّقيقَ شيئاً (res) لا شخصاً ، فلم يكن يحقٌّ له أن يمْتَلك ، ولا أن يكونَ دائناً أو مَدِيناً أو شَاهداً ، بل كان يجوزُ تَملّكه كباقي الأموال ، وكان الرجلُ لا يُسألُ إذا قَتَل مَمْلُوكَه[١] .

لقد أدّت ثَرْوةُ رُوما المُتزايدة « إلى ازدياد عدَدِ رقيقِ المنازل ، ومن ثَمَّ نمتْ طبقةُ العبيد إلى أعدادٍ ضخْمَة ، فكانوا يوجَّهون للعمل في المسارح ،

---

(١) الموسوعة العربية : ٨٧٤/٢ ، ولتفاصيل أخرى راجع (دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي ، ط ٣ (١٩٧١) ، دار المعرفة ، بيروت) : ٢٧٦/٤

أو في مبارزات المُجَالِدِين [الدموية] ، كما كان بعضُهم يُوجَّه إلى حدما للعمل في الدّعارة ! وكان معظمُ العبيد من الأجانب ، كما كان بعضُهم على درجةٍ عالية من الثّقافة ، ومن ثَمَّ كانوا يُسْتخدَمون كمعلمين . وأصبح امتلاكُ حَاشِيةٍ كبيرةٍ من العبيد من أهم علاماتِ التّرَف ، وزاد الطلب على ذوي المظهر الأجنبي منهم وخاصة الأسيويين . وكانت ظروفُ الحياةِ في الرّقّ الزراعي ، وفي سائر أنواع الرّق غالباً ، ظروفاً وحشية في قسوتها ، كما انتشر استغلالُ المُقاطعات المقهورة .. »[1] .

وفي عُصُور الازدهار للحَضَارة العربية الإسلامية ـ التي أشرنا في البداية كيفَ ارتقى الإسلام بمفهوم الرّق فيها عن ذلك الذي كان شائعاً ومألوفاً في الشرق أو الغرب من قبلُ[2] ـ كانَتْ أورُبّة تعيش فيما عرف بالعصور الوسْطى في التّاريخ الأوربي ، والممتدَّة حتى عصر النَّهضة وأوائل العصر الحَديث ، حينَ كانت تَتَعامل مع الرَّقيق نفس ذلك التعامل القَدِيم مع بَعْضِ التّغيير في الأشكال والاحتياجات . وقد استمرَّ رقيقُ الأرض (القِنّ) يباع أو ينتقل مع الأرض التي يعمَل فيها إلى المَالك أو الوريث

---

(١) قارن هذا الموقف اللاإنساني مع التشريع الإسلامي الذي ارتقى بالتعامل الإنساني مع الرّقيق إلى أعلى درجاته ومن ذلك : أن من قَتَلَ عبداً قتِل به كما هو عند أبي حنيفة ، كما أنه ورد في الأثرِ الشريف من حديث ابن عُمر : « من لَطَمَ مَمْلُوكَهُ ، أو ضَرَبَهُ فكفّارَتُه أنْ يَعْتِقَه » : صحيح مسلم بشرح النووي ، ١٢٧/١١ ؛ وراجع نَيْل الأوطار للشوكاني : ٩٤/٦

(٢) راجع (ص : ١٣ ـ ١٦ فيما تقدم) ، وانظر حول الموضوع كتاب المستشرق آدم متز : (الحَضارة العَربية في القرن الرّابع) ترجمة عبد الهادي أبو ريدة .

التالي في نظام الإقطاع الأوربي حتى القرن التاسع عشر ، وكانتْ رُوسيا القَيْصَرِيّة من آخر الدّول الأوربية التي بقي فيها ، بل إن الأمبراطور الشّهير بإصلاحاته بُطْرُس الأكبر (١٦٧٢ - ١٧٢٥ م) وضع رَقيق الأرض في قائِمَة العَبيد . ورغْم الثوراتِ التحررية وتوجُّهاتِ عَصْرِ التنوير The Enlightenment Ages التي سبقت التشريعات والقوانين في القرن الماضي لتحريم تجارة الرَّقيق - التي سنأتي على ذكرها - فقد استمرتْ بعضُ صُوَرِ العُبودية في الغرب حتى القرنِ العشرين ، ومنها استخدامُ العبيد في السفن ذاتِ المَجاديف ، وهي عادة ظلَّت مستمرّة باعتبارِها عقوبةَ أشغال شاقة !.



لقد تَمَثّلَتْ بدايةُ العَصْرِ الحَديث بما أدّت إليه اكتشافَاتُ الملاّحين البرتُغَاليين على السّاحل الأفْريقي في القرنين الخامس عَشر والسّادس عَشر إلى استغْلال زُنُوج أفريقيا عبيداً بشَكل لم يَسْبق له مَثيلٌ في التّاريخ ، وغدت زيَارات تُجّار الرّقيق المُغيرين على السّواحل الأفريقيّة عَبْر القرون الأربعة التّالية تُمثّل تِجَارةً هَامةً ومُرْبحةً ، لم يُقلل من أهميّتها ما اتّصَفَت به من وَحْشيّةٍ رَهيْبةٍ . ولم تكن البُرتغال ، ومن ثم أوروبة هي المكانَ الذي قُدّر لِرق الزّنوج أن يَنْتشر فيه ويَغْدو نِظاماً مُربحاً ، بل وبشكل أوسع في العَالَمِ الجَديْدِ[1] .

(١) لعله من المُصادَفاتِ التاريخيةِ أن يحدُثَ اكتشافُ أمريكا عام ١٤٩٣ م في نفس العام الذي سقطت فيه (غَرْناطة) آخرُ معقلٍ للعرب المسلمين في الأندلس ، وشكل ذلك =

إن الحَديثَ يطُولُ بنَا لو توسّعْنـا في تَتَبُع الاستغلال الأوروبي للرّقيق الـذي بـدأ من نهـايـة القَرْنِ الخـامِس عَشَر ، بـدايـةً على يَـد الأسبـان والبُرْتغاليين في جُزُر الهند الغربية وفي أمريكا الوسطى والجنوبيـة ، وكان من بين ضحايـاه الهنود الأصليون الـذين لم يستطيعوا تحمّلَ مشـاقِّ نظـام الرّقّ أو العمـل القَسْري في الإقطـاعيّـات والضّيـاع العسكريـة ، وكانت النتيجةُ أن أُبيدوا واستُورِدَ الزّنوجُ ليحلُّوا محلّهم في أوضاع سيئـة مُحْزِنـة ، ونكتفي لإيضاح جانبٍ منها بما أورده مؤرّخان أمريكيان معاصران حين ذكرا :

« وكانَ العبيـدُ الـزُّنـوج يُسْتَجْلَبـون في الغـالـب من السـاحِـلِ الغَرْبي لأفريقيا من (سَنْغَـامبيـا) في الشمال ، إلى (أنْغُولا) في الجنوب ، وبعـدَ ختامِ القَرْن السّابعَ عشر عندَما انتهى احتكارُ الشّركة الأفريقيـة المَلَكيـة ، انتقلتْ تجـارةُ الرّقيـق إلى أيـدي مجمـوعـةٍ كبيرةٍ منَ الشّركاتِ والأفرادِ

= الانتصار النصراني على المسلمين فصولاً جديـدة زاد فيهـا التعصّب الصليبي على المسلمين في الشمال العربي الأفريقي الذي أبيح في مياهه بل وأراضيه أخذُ المسلمين رقيقاً ، وقـد زاد بذلك عدد المستعبَدين من الأندلس حتى سقوطِ غَرناطـة « وقـد كان ذلـك تمهيـداً لعصر الفتـح والنّصر والاستعمار فيما بعـد حينَ انتشرتِ الجيـوشُ الأسبـانيـة في العـالم القديم ، وفي العالم الأمريكي الجديد » .

وقد أيّد المؤرخ (هـ.أ.ل.فشر) مـاذهب إليه بعضُ البـاحثين من أن « الارتبـاطَ الـوثيـقَ بين العرش الملكي (الأسبـاني) والتعصّب الـديني أهم أسبـاب انحـلال الإمبراطورية الأسبانية وسقوطها في العصر الحديث » فشر : تاريخ أوروبـا (العصور الوسطى) / الترجمة العربية / دار المعارف بمصر (١٩٦٦ م) : ٣٨٨/٢

« أمريكيّين وبَريطـــانيين على الســواء » . وكْم من ثَروات قـــامَتْ في بُوسْطُن ، ونُيويورك ، ونيوپورت ، وموانئ الجنوب على هذه التّجـارة . ولعلَّ أكثرَ أسواقهـا رواجـاً هي التي كانت تُعقـد في تشـارلستـون ، حيث كان يتزاحمُ عددٌ كبيرٌ منَ الشركات . ولقد كَتَبَ « هنري لورنز » ، الـذي برز في هذه التجـارة بضْعَ سِنين فيما بعـد ١٧٥٠ ، أن أصحـاب المزارع كانوا يَفِدُون من مسافات طويلة ، ويُقـدّمون بتحمس مـا يصل إلى ٤٠ جنيهـاً إسترلينياً مقابل الشابّ من الزّنوج ؛ وبينمـا كان العبيـدُ يُبـاعون عـادةً في الشّمال من المُسْتَجْلَبين إلى المُشْتَري مبـــاشرة ، ونقـــداً ، وكانـوا كثيراً ما ينقلون في الجنوب جماعات إلى التُّجارِ وغيرِهم من الوُسطاء الـذين كانوا يبيعونَهم بالمقايَضَة ، مقـابلَ التّبغ أو الأَرز أو النِّيلـة ! وكان رقيقُ الحقول يَلْبَسون أسمالاً خَشِنة ، وينزِلون في أكواخ حَقِيرة ، ويمـارِسُون أشقَّ العَمَل في الحُقُول تحتَ إمرةِ مُلاحظين قُسَاة القُلوب .. »[١]

وهكـذا تـزايـدَ عـددُ العَبِيـد في أمريكا حتى بلـغ نحـوَ أربعـةِ مـلايين ونصفِ المِلْيون ، أو على وجه الدّقة (٤,٤٤١,٨٣٠) عشيَّـة الحرب الأهليـة عام ١٨٦١ م بينَ الشّمال والجنوب ، كما تقرِّره الموسوعة البريطانية[٢] .

---

(١) A Short History of United States, by: Allan Nevins and Henry Steele Commager (1981),

وراجـع الترجمـة العربيـة (مـوجـز تـاريـخ الـولايـات المتحـدة) دار المعـارف بمصر (١٩٨٣ م) ص : ٤٢

(٢) Encyclopaedia Britannica: 16/861

لقد اطَّرَدتِ الزيادة في السكان في القارات كافة بدءاً من القَرْنِ الخامس عشر الميلادي وما بعده ، باسْتثناء أفريقيا التي جرى تفريغها باستمرار من قُواها الشّابة والعاملة ونقلها إلى جهات مختلفة من العالم على امتداد القُرون التي شهدت تجارة الرّقيق ، ورغم أنه لا يوجد رقم دقيق للخَسارة السُّكانية التي أصابت شُعوبَ القارَّة وأثر ذلك في تخلفها الاقتصادي والاجتماعي ، فإن **الجدول الآتي** الذي قدَّمه أحدُ الباحثين الأوربيين عن التقديرات لسكان القارَّات الثلاث بين عامي ١٦٥٠ و ١٩٠٠ يشير « إلى إجماع يَسود بينَ الباحِثين في مجالِ السّكان مؤدّاه أنّ قارة أفريقيا الضّخمة تميَّز بسجلٍّ غير عادِي من الرُّكود في هذا المضار ولا يُوجد سبب لذلك يمكن أن تتجه إليه الأنظار سوى تجارةِ الرّقيق »[1] :

القارّة	عام ١٦٥٠	١٧٥٠	١٨٥٠	عام ١٩٠٠
أفريقيا	١٠٠ مليون	١٠٠ مليون	١٠٠ مليون	١٢٠ مليون
أوروبا	١٠٣ مليون	١٤٤ مليون	٢٧٤ مليون	٤٢٣ مليون
آسيا	٢٥٧ مليون	٤٣٧ مليون	٦٥٦ مليون	٨٥٧ مليون

☆ ☆ ☆

---

(١) د. والتر رُوذْني : أوروبا والتخلُّف في أفريقيا ، ترجمة د. أحمد القَصير ، سلسلة (عالم المعرفة ١٣٢) ، الكويت ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م ، والكتاب دراسة متعمّقة لتاريخ التقدّم في أوروبا والتخلّف في أفريقيا (الغنية) وكيف أن « تجارة الرّقيق الأوروبية ووصمة الاستعمار كانتا السببين الأساسيين وراء تخلُّف أفريقيا وركودها التقني .. »

العُثْمانيون ونظَامُ العُبُودية

مضتْ بضعةُ قرون على تلك الحالِ التي عاشها العبيدُ في نظامِ الرّقّ في عالم الغَرْب ، ولا بدَّ من إشارة يقتَضِيها السّياق التاريخي والمَوْضُوعي إلى ذلك النّظام العُبُودي الذي استحدثَه العُثمانيون مع بداية نشأة إمارتهم في مطلع القَرْن الرّابع عشر حتى سقطتِ القُسطنطينية في أيديهم في تاريخ حاسم (٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ هـ) ، شكل مادة الانتصارِ فيه وما تلاه من مَعَارك وفُتوحات غَرْباً وشرقاً ، نِظامَ (عُبُودية) كان فريداً ، ويعتَبَرُ أوسع تجربةً وتطبيقاً من نِظامِ المَماليك في مصر[1] ؛ ذلك هو نظام (اليَني شريه) ويعني (الجُنُود الجُدُد) والشائع في العربية باسم (الإنكشارية)[2] .

(١) لهذه التَّجربة نظيرٌ من الناحية النظرية في جمهورية أفلاطون ، ومن النّاحية العَمَلية في النظام المَمْلوكي في مصر (١٢٥٣ - ١٥١٦ م) ويرى المؤرّخ المرحومُ الدّكتور محمد أنيس أنها مع ذلك « اختلفت عن نظرية أفلاطون في أنها لم تكن محصورةً في الأرستقراطية الهيلينية ، كما كانت أوسعَ مدىً وتطبيقاً من نظام المماليك في مصر ، وهي إلى جانب هذا تتميز بعنصر ديمقراطي من نوع خاص بها لا يعرفُه التاريخ .. فالنظام العُثماني الحاكمُ وُضِع عَمْداً بشكلٍ يَسْمَح للعبيد - الذين جلبتْهمُ الدّولة مختارةً ، وتوصيلهم إلى مناصِب الوزارة ، وتزويجهم من أميرات - أي أنها أحضرت هؤلاء العبيد المسيحيين ليحكُموا دولةً إسلامية .. » (د. محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي) : ص ٧٥

(٢) علّق المؤرّخ المرحومُ الدكتور محمد زيادة في حاشية الترجمة العربية لكتاب (فشر) : تاريخ أوروبا (العصور الوسطى) - السابق ذكره - حول تسمية (اليني شريه) بأنها =

كانتِ الهيئةُ الحاكمةُ العُثمانيـة بـأكْمَلِهـا من أصغرهـا إلى الوزير ـ عـدا أفرادِ الأسرة المالكـة ـ عبيـدَ (السلطـان) يطلق على الواحـدِ منهم كلمـةُ (قُول) ، وهنا تَبْدو استبداديَّـةُ السُّلطـان بمعنـاهـا الصَّحيح ، إذ كان لـه التصرُّفُ بـأرواح هؤلاء العبيـد وممتلكاتهم ، وعلى ذلـك فـلا يمكنُ لفردٍ أن يدخل الهيئةَ الحاكمةَ إلاَّ عن طريق (العُبُودية) الذي كان مَفْتوحـاً فقـط لعبيـد نصـارى من سن عشرة إلى عشرين . وكان أمـامَ السلطـان أربعـة طرق للحصول على عبيدِهِ (بالأسر ، بالشّراء ، بالهَدَايا ، وبـالضّريبـة)[1] وعندما كان يجلبُ أولئـك الصّبيـان أو الغلمـان من المنـاطق النصرانيـة في الأمبراطـوريـة وشبـه جـزيرة البَلْقـان والمَجَر والسّـاحِـل الغربي لآسيـا الصغرَى ، والسواحل الجَنوبية والشّرقية للبَحْر الأسود ، كانوا يجبَرون على الدّخول في الـدين الإسلامي ، ويـدربون تـدريبـاً جسمانيـاً وعقليـاً حتى تظهَرَ مـواهبُهم ويُختـارَ أحسنُهم عقـلاً وأليقهم جسمـاً ، ليُلْحقـوا بمـدارسَ سلطانيةٍ خاصّـة ويكونَ منهم من يُستخـدَم في منـاصِبِ البلاط والـدّولـة التي قد يتبوَّؤون فيها أعلى المنـاصب ، ويُؤخَـذ البـاقُون إلى الجَيْش حيث كان يطلـق عليهم (عَجَمي أوغـلان) أي (الصّبيـة الغربـاء) ليـدرَّبـوا تـدريبـاً عسكريـاً خَشِنـاً ، ويُلْحَقَ معظمُهم بفيـالق المُشـاة المشهـورَة في

= الصيغـة التي يَنْبَغي استعمالُهـا ، فهي في صيغَتِهـا الأوربيـة بـل والتركيـة هكـذا (Janissayiers) وبالتالي فإنَّ مادأبت الكتب المتداولة في اللغة العربيـة على تسمية هذه الفرقة باسم (الانكشارية) غير مطابق للأصل المسمَّى به ذلك النظـام أو الفرقـة (ص : ٤٨٨/٢ حاشية ١) .

(١) د. أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي (ص : ٧٤ ـ ٧٧) .

الجيـوش العثمـانيـة (بـاليَنِي شريــه) ، وكان من أقـوامهم المَجْلُـوبـون من العَنَاصِرِ الألبانية والشعوب السّلافية في جنوب أوروبـة . وإذ يقرّر معظَمُ المؤرخِين عَرَباً وغربيين أن هـذا النظـام قـد أخرَج إلى العـالم رجـالاً على جانب كبير من الكِفـايَـةِ والمَوْهِبـة ، إلاّ أنـه كان يتضمّن إهمـالاً للعـاطِفَـة الإنسـانيـة ، وعـدم الاعتراف بحقّ الآبـاء في تربيـة أطفـالهم حَسْبَ دينِهم وقوانينهم[1] .

وخُلاصَةُ القَولِ « أنّ الإمبراطوريّـة قـامت وظلّت قَـائِمـةً ، لا بفَضْل رجــال من العُثمــانيين فحسب ، وأولئــك لم يكـونــوا كثرةً في الجيــوش العثمانية . بل نهض معهم في ذلك رجالٌ معظمُهم صقـالبـة الأصل ولـدتْهم أمهاتُهم مسيحيين ، ثم جيء بهم إلى مـدارسَ (الينى شريــه) حيثُ طُبِعوا بطابع الخُضوع العسكري والعقيدة الإسلامية ، وليس في استطاعة بـاحثٍ أن ينكرَ أنّ أعظمَ رجال الإمبراطورية العثمانية جـاؤوا إلى هـذه المـدارس بعد انتزاعهم من أهلهم المسيحيين » .[2]

بَيْدَ أنّ نظام (الينى شريه)[3] تـدهْوَر ، وأصبح المسلمون يجنَّـدون في

---

(١) د. أنيس : ٧٥ ، وراجع : (الدولة العثمانية) للدكتور عبد العزيز الشنـاوي (الفصل السابع عشر) : ٤٧١/١ ومراجعه .

(٢) فيشر : تاريخ أوروبا : ٤٤٩/٢ ـ ٤٥٠

(٣) أطلق عليه الدكتور عبد الكريم رافق في دراستـه القيمـة (بلاد الشـام ومصر من الفتح العثمـاني إلى حملـة نـابليون بونـابرت) نظـام (الـدفشرمـة Devshirme) أي (جمع الشبان) محيلاً في مصادره إلى بحث المستشرقين (جب Gibb وبووين Bowen حول نفس الموضوع) (انظر كتابه ص : ٤٢ والحاشية فيها) ؛ وللدكتور رافق أيضاً مقـال =

بعض ولايات الإمبراطورية ، وانهار نظامُ المدارس . واشتدَّتِ الفوضَى والتمرد منذ النصفِ الثاني من القرن التاسع عشر « وبعد أن كانَ الإنكشارية ، يُرْهِبون جيوش أوروبا ، خاصة في عهد السلطان سُلَيمان القانوني ، أصبحوا في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، يُرْهبون بصورة متزايدة سلاطينَهم العثمانيّين إلى أن قَضَى عليهم السلطانُ محمودٌ الثاني في عام ١٨٢٦ م »[1] .





= مفيد بعنوان « مظاهر من الحياة العسكرية العثمانية في بلاد الشام » ، ذكر فيه أن (الانكشارية) مشتقّة من الكلمتين التركيتين (Yeni/çéni) وتشيران إلى الفرق الجديدة تمييزاً لها من الفرق القديمة من الفرسان (السباهية) . وقد حرِّفت الكلمة التركية بالعربية إلى (ينيجرية) وشاعت على أنها (إنكشارية) ، وكان السباهية من الفرسان ، أما الإنكشارية فمشاة . (انظر : مجلة دراسات تاريخية ، العدد الأول ، دمشق ١٩٨٠ ، ص : ١٧) .

(١) د. رافق : بلاد الشام : ٤٢ ـ ٤٣ و ٧٣ ـ ٧٦

من القانون الأسود إلى الثَّورَة الفرَنسية والدّستور الأمريكي (١٦٨٥ - ١٧٨٩ م)

كان القَانونُ الـذي شُرِّع لِتَفْصيل أَحْوالِ الأَرِقّاء يُدعَى في كل الأمم الأَوروبيّة والمُعَاصِرة **بالقانون الأسود** . وبمقتضى (القانون الأسود الفرنسي) الذي صدر عام ١٦٨٥ م كان « إذا اعْتَدَى (عَبْد) على أحد الأحرار ، أو ارتَكَبَ جَرِيْمة السّرقة عُوقبَ بالقَتْل أو بِعِقَاب بَدَني آخر . أما إذا أَبَقَ[١] العَبْدُ فقد نَصّ القانون أن الآبِقَ في المرّة الأُولى والثانية يتحمَّل عقوبةَ صَلمِ[٢] الأُذُنين ، والكيّ بالحَديد المحمي ، فإذا أَبَقَ الثالثةَ قُتِل !. وقَتْل الآبق كان معمُولاً به أيضاً في إنجلترة ، فقد نصَّتْ قوانينهُم

---

(١) (الآبق) في اللغة الهارب ؛ وشرعاً الرقيق الهارب تمرُّداً من مالكه ، أو مستأجره ، أو مستعيره ، أو مودعه ، أو وصيّه ، ولم يقتصر الفقهُ الإسلامي وعلم الفقهاء على معالجة وضع هذا (الآبق) بل عالج أيضاً وضع سيده (المَوْلى) ، و (الرَّادّ) أي الشخص الذي يقبض على الآبق ، الهارب ، ليسلمَه إلى مالِكه ، وذلك من الوُجهة الشّرعية وبمناقشات وأحكام اتسمت بالعقلانية والإنسانية ، وبعضها بالطّرافة والاستحسان ، وقد باتت في حكم التاريخ الفقهي ولم يبقَ لها سوَى الفائدة التاريخية بعد اضمحلال نظام الرّق وانتهائه من العالم وعالم الإسلام منه فذلك كان غايته .

(٢) صَلَم الشيء قطعه من أصله ، وصَلَم الأُذنين : قطعهما من أصلها (اللسان) .

على أن من أَبَق من العَبيد وتمادَى في إباقِه قُتِل .. أما الاسترقاق في أمريكا الجَنُوبية فكان على غايةِ الشدة والقَسْوة ، وكان مقتضَى القَانون الأسود أنَّ الحرَّ إذا تزوّج بأمةٍ صار غيرَ جدير بأن يشغل وظيفةً في المستعمرة .. وكانت تلك القوانين (السوداء) تُصَرّح بأَنَّ للسيدِ كُلَّ الحَقِّ على عبدِه حتى حقّ الاستحياءِ والإماتة !، وكان يَجُوز للمَالِك رَهْنُ عَبْدِه وإجَارَتُه والمُقَامَرةُ عَلَيه وبَيْعُه .. إلخ كأَنّه بَهيْمَةٌ .. »[1] .

إنَّه لم يكن من المسموح به لذوي الألوان أن يَحْضُروا إلى بلد كفرنسا لطلب العلم والاستفادة[2] ؛ وقد دامت الحالُ على هذا حتى تم القضاءُ على نظامِ الرِّقّ بعد جهودٍ حَثِيثَةٍ بشَّر بها (عصرُ التنوير) في القرن الثّامن عشر . ففي هذا القرن انتشرتْ أفكار المُصْلِحين والمفكّرين الأوربّيين وبشكل خاص في فرَنسا أمثال مُونتِسْكيو (ت ١٧٥٥ م) فقد كان لكتاباته الاجتماعية والسّياسية ، ومن أهمها كتابُه (روح القوانين) ، أثرُها السّياسي والتشريعي ؛ كذلك فُولتير الذي تزعَّم حركة الفلسفة الماديّة ،

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي : ٤/٢٧٧ ـ ٢٧٨

(٢) لقد وَلَّدت السيطرةُ الأوروبية على أفريقيا وآسيا غطرسةً عنصريةً لا زالت آثارها الآثمة ماثلةً في جنوب أفريقيا وروديسيا (زمبابوي) وغيرهما ، ومن الأمثلة الكثيرة على حَظْر التعليم في بريطانيا على الملوَّنين أن الطالِبَة الأفريقية (كليا فوراه باي) من سِيراليون سعَتْ إلى الالتحاق بجامعة (دُرم DURHAM) البَريطانية المعروفة وتحقَّق ذلك عام ١٨٧٤ م أعلنت صحيفةُ التايمز « أن جامعةَ دُرَم يَنْبَغي لها أن تَنْتَسِب إلى حديقة الحيوان بلندن ! » : (أوروبا والتخلف في أفريقيا ص : ٢٠٤) .

ونقَدَ رجال السلطتين الكنيسية والمَدَنية بقَلَمه الرّشيق اللاذع ، وقد تُوُفّي (عام ١٧٧٨ م) قبل شهر من وفاة معاصره الفيلسوف الاجتماعي جان جاك روسّو صاحِبِ (العِقْد الاجتماعي) وغيره من الكتب ، وكانت مبادئه شبهَ إرهاصات لقيام الثّورة الفرَنسية ، وهو الذي أطلق ذلك القولَ المشهورَ في (عقْده) « **إن الإنسانَ يولَد حرّاً لكنّه لا يَلبَثُ أن يكبَّلَ في الأغلال** » ولا ريب في أن القارئ العربي يذكر المقولةَ الخالِدَة للخَليفَةِ الفاروقِ عمرَ بنِ الخطاب (رضي الله عنه) - قبل نحو أربعة عشر قرناً - حين وجه خطابَه لعمرو بنِ العاص في الموقف العادِلِ المعروف : « متَى استعبدْتُم الناسَ وقَدْ ولَدَتْهُمْ أمّهاتُهم أحراراً ؟!» .

لقد انتشرت تلك الآراء والأفكارُ ، واشتد معها الهجوم والنقد لتجارة الرقيق ، وكانت الثورَةُ الفرنسية (١٧٨٩) نتيجةً لها ، فكان شعارُها (الحُريّة والإخاء والمُساواة) إيذاناً باقترابِ نهايةِ تجارةِ الرقيق ومن ثم تحريم الرق على مراحلَ ، فقد أعلنتِ الثورةُ تحريرَ العبيد بما في ذلك الرّقيق في مستعمراتها ، وإن كان نابُليون بُونابرت أعاد العبوديةَ في بعض المستعمرات عام (١٨٠٢ م) واستمرّ ذلك حتى عام الثورات (١٨٤٨ م) التي هزَّت فرنسا وأوروبا كلَّها ، وسعتْ في إبطال الاسترقاق تماماً[1] .

---

(١) Britannica, 16:882 ، وعلى عكس مافعله نابليون في بعض تلك المستعمرات الفرنسية ، فإن مما له مغْزَاه ماقام به وهو في طريقه إلى الشّرق عام ١٧٩٨ بتحرير ألفين من المسلمين البَرْبَر الذين بقوا مأسورين في جزيرة (مالطا) بعد أن باعَ منهم فُرسانُ الجزيرة آلافاً من أوائل النّصف الأول من القرن الثامن عشر للبحرية =

وفي بريطـانيـا نَشِـطَ دُعـاةُ المـذهب الإنسـاني (Humanism) في النصف الثاني للقرن الثّامن عشر ، فقـد جَعَلُوا منْ إلغـاء الرّق جزءاً مكملاً لَمْفهومِ النصرانية في نَظَرهم[1] فنَجحوا في استصـدار قوانين عـام (١٨٠٩ م) التي تحرّم تجـارَة الرّقيق البَريطـانيـة ، واستمرّت تلـك الجُهودُ فتكـوّنت في عام (١٨٢٣ م) جمعيّة لدُعاةِ معاداةِ الرّق ، شنّ قـادتُهـا حملـةً شعواءَ ضـد نظام الرّق والعبودية في المستعمراتِ البريطانية ، ساعدت أحـدَ ممثليهم في البرلمان البَريطاني (تومـاس فوول بكستون T.F.Buxton) على مواصلـة دور سَلَفِـه المفـوّه (ولبرفـورس Wilberforce) وأن ينجـحَ في إقنـاع البَرْلمان بعد مُناقشاتٍ طويلة أفحم فيها خصومَه ، في إصـدارِ قـانونِ عـام ١٨٣٣ « بتحرير كلِّ العبيد (الرّقيق) في المُسْتعمرات البريطانية بعد فترةِ إعداد لذلك تمتد من ٥ ـ ٧ سنوات مع تعويضات للملاّك »[2] .

إن بعضَ الدّراساتِ الحديثةِ تذهب في تحليل المساعي البريطـانيـة إلى إلغاء الرّق لم يكن مصدرُه إلاّ الحرصَ على المصالح الاقتصاديـة ، ذلـك أنّ

= الفرنسيـة ، وقـام عشرة الاف منهم بثورة أجهِضَت في عـام ١٨٤٩ (Ency. of Islam, I: 34) .

(١) نَصّ (الإنجيل) : على أنّ النّاسَ كُلَّهم إخْوانٌ ، ولكنه لم ينصّ على مَنْع الاسْتِرقَـاقِ ، ولذلك أقرّته جَميعُ كنـائِس النّصـارى على اختلاف أنواعهـا ، ولم ترَ فيـه أقلّ حَرَجٍ . وقـد جـاء في رسـائل الحواريّينَ « بُولس » و « بُطْرس » بـواجب العبيـد في الخُضـوع والطّاعَةِ لَمواليهم .. الخ (راجع : دائرة معارف القرن العشرين : ٢٨٠/٤) .

(٢) Britannica, 16: 862

الرّقّ بعد أن حَقّق ثروةً كبيرةً في النّظام الاقتصادي التجاري الغَربي ، غَدا غيرَ مُربحٍ في ظلّ الرأسماليةِ الصّناعيةِ النّاميةِ التي احتلّت عَرْش الاقتصادِ في القرن التاسع عشر ، وآذَنَتْ بمرحلةٍ جديدةٍ من الإمبريالية والاستعمار[1] . إن هذه النظرة ـ على صِحّتها ـ لا تُلغي تلك الجهودَ الإنسانية والخَيِّرة التي بُذلت لإصدار تَشْريعات عام ١٨٣٣ والتي أعقبها القضاء التدريجي على الرّق في جميع البِلاد الخاضعة للامبراطورية التي لم تكن تَغْرُب عَنْها الشّمسُ .



لقد انعكس الكثيرُ من الأفكار والآراء الجديدة التي حَمَلَها عصرُ التّنوير في أوروبا على أمريكا ، فقد كان هُناك قَدْرٌ كبير من الاتجاه الإنساني إلى تحرير العَبيد ، ونَصّتْ وثيقةُ إعلان الاستقلال (٤ يوليو ١٧٧٤ م) بالمُساواة بيْنَ المُواطنين في الحقوق والواجبات[2] إلاّ أن المشكلةَ كانت أكبرَ وأعمقَ مما كان يَظُنُّ المتفائلون والمتحمّسون ، ولهذا فقد أَخَذَتْ قضيةُ مركز العَبيد وموضوعُ تحريم تجارةِالرّقيق مع قضايا أخرى أعظمَ الجَدَل والمُناقشات عندما وُضع « دستورُ الولايات المتحدة الأمريكية »

---

(١) لمزيد من التفاصيل راجع (أوروبا والتخلف في أفريقيا) مرجع سابق (ص : ١٣٧ ـ ٢١٢) .

(٢) جاءَ في إعلان الاستقلال (٤ يوليو ١٧٧٦ م) « إنّنا لَنُؤْمِنُ بالحَقائق البَديْهيّة التي تُقرّرُ أنّ النّاسَ جَميعاً خُلِقوا سَواسِيَةً ، وأنّ اللهَ وهَبَهم حُقوقاً مُعيّنةً ثابتةً ، مِنْها حَقُّ الحَيَاةِ والحُريّةِ والسّعْي لتَحقيقِ السّعَادةِ ... » .

الـذي اعْتُمِـدَ أخيراً في ٢٥ يونيـو ١٧٨٨ م ، وإذا كان ذلـك إنجـازاً حـاسماً بالفِعل[١] ، فإن النصوص المتعلّقة بالرِّق بصورة مبـاشرة أُغفلت عن عمـد ، ومنع الكونجرس (البرلمان) من إلغاء تجـارَةِ الرّقيق لمـدة عشرين عـامـاً . ومرّ ثلاثةُ أرباع القَرْن من تاريخ الولايات المتحـدة بعـد إعلان الـدستور واختيـار جـورج واشنطن (١٨٨٩ م) أول رئيس لهـذه الـدولـة الفَتِيَّـة الغنيـة المتوَثِّبـة ، ومشكلـةُ العبيـد تزدادُ تعقيـداً وتتحـوَّلُ مـع السنين إلى قضية سياسيّة بعد أن كانتْ إنسانيَّةً وأخلاقية ، لا تخمد نـارهـا ، وتمركَزَتْ في منتَصَفِ القَرْن بعـدَ تسـويـة سنـة ١٨٥٠ في إصرار المتطرّفين وأصحـاب المصـالح في الولايـات الجنوبيـة بـالتّمسـك بحق وُجـود الرّقيـق في جميـع المقاطعات ، بينما أكد أهلُ الشّمال رأيَهم القـائل بـأن لا حَقّ هنـاك لوجُود الرَّقيق في أي منها .

واستصدَرَ الجنوبيُّون القوانينَ المرسِّخة للعبوديّة ومنها (قـانون العَبِيـد الآبقين الهاربين) الذي كان جُزْءاً من تسويةِ عام ١٨٥٠ ، فقد تعرض فيها نحو عشرين ألفاً من العبيد الهاربين إلى الشّمالِ للاعتقال ثانيةً ، لقـدْ رَفَض كثيرون من الشّماليين تنفيـذَ قـانـون العَبيـد الهـاربين ، وانْطَلَـق الكُتَّـاب والشعراء بشعـارات « لا ، لا أغـلالَ في خليـج ولايَتِنـا ، ولا رَقيـقَ على أرضنا ! »[٢] كما ألهَمَ ذلك القـانونُ التعيسُ الكاتبـةَ (هـارييت بيتشر ستو

---

(١) راجع : موجز تاريخ الولايات المتحدة (مرجع سـابق) ، الفصل الخامس : (وضع الدستور) : ص ٩٤ وما بعدها .

(٢) موجز تاريخ الولايات المتحدة : ١٨٨ ـ ١٩٢

H. Beecher Stowe) روايتَهـا ذائِعـةَ الصّيت (كـوخ العم تـوم Uncle Toms Cabin) التي ظهرت سنة ١٨٥٢[١] ورسمت صورةً قاتمةً للرّق ، بلغ من قوّةِ وقْعِها أنّها أثـارت شُعوراً عَميقـاً في الشمال والجنـوب معـاً . لقـد أظهرت الآنسَة ستو في روايتها « كَيْفَ أنّ القسوة كانت نِـدّاً لا ينفصل عن الرّق ، وكيفَ أن مجتمعي الأحرار والعبيد كانا مُتَنَـاقضين في جوهريها فلا سبيلَ للجَمْعِ بينَهما » . وقد عَبّر عن هذا المعنَى بقوّة ووضوح محـام طويل نحيل من « إيللينوى » بدأ يَبْرُز مع ازديـاد نفوذ زُعمـاء « أرض الحريـة » ذلـك هو « إبراهـام لينكولن » الـذي أظهر في هـذا الـوقت العصيب قـوّةَ مَنْطِقٍ مذهلة في مناقشة المسائل الجـديـدة ، فقـد أعلن في خطـاب لـه في (١٧ يونيو ١٨٥٨ م) :

« أن بَيْتاً مُنْقَسِماً على نَفْسِه لا يستطيعُ البَقـاء ، وإنّني أعتقـد أنّ هـذه الحكومـة لن يُكْتَب لَهـا استقرارٌ أو بَقـاء ، مـادَامَ نِصْفُهـا أرقـاءَ والنّصفُ الآخر أحْراراً »[٢] .

---

(١) تُرجم الكتاب إلى ما يزيـد على عشرين لغة (منهـا العربيـة حـديثـاً) وبيع منـه في الإمبراطورية البريطانية آنذاك أكثرُ من مليون نسخـة ، وبعـد أن حُول إلى مسرحيـة أذهلت أعداداً هائلة من النظارة الذين كان للنشء الجديـد منهم تحوُّل حـاسم لصـالح دعاة تحرير العبيد .

(٢) انظر : موجز التاريخ الأمريكي (١٩٨٨ م) : ٧٢ ـ ٨٥ ، ومن الدّراسات الكثيرة عن (لينكولن) كتاب :

Benjamin Platt (Thomas) : Abraham Lincoln: A Biography, Alfred A. Knopf, 1952

وبعد عامَيْن كان (لينكولن) هو مرشحَ الحِزْبِ الجُمْهوري الذي تم تشكيلُه بمبادئ مضادّةٍ للرِّق بصورةٍ قاطِعَة ، وكان أكثَر الشخصيات شعبية ليمثل إرادة الملايين ممَّن أعلنوا أنهم لن يسْمَحُوا بغدٍ للرّق ، وكان فوزُ (لينكولن) بمنصب رئاسة الجُمْهورية تَصويتاً شَعْبياً في جانب سياسة الحَدِّ من الرّقّ والسماح (للرقيق بدخول أي إقليم) ، وهو المَبدأ الذي تَشَبّثَ به ، فانطلقت حربُ التحرُّر بين الشمال والجنوب[1] (١٨٦١ ـ ١٨٦٥ م) . وكان انتصارُ الشّمال في تلك الحَرْب الأهلية يعني وضعَ نهايةٍ للرِّقّ في الولايات المتحدة الأمريكية ، وكان (إعلان التّحرير) الذي أصدرَه لينكُولن بداية لكثير من التَّشريعات الفعَّالة التي تَبِعَتْه ، وخاصة التعديلُ الثالث عشر للدستور الأمريكي[2] ، كما أن اغتيالَ (لينكولن) (١٥ إبريل ١٨٦٥ م) على يد أحدِ المتعصِّبين للنّخاسة ، بعد تَجْديدِ انْتِخابه ثانية كان حافِزاً لإكمال المسيرَةِ التي دَفَع حياتَه ثمناً لها[3] .



☆ ☆ ☆

(١) كان عددُ ولايات الشمال ثلاثاً وعشرين ولاية مجموع سكانها ٢٢ مليون نسمة ، مقابل إحدى عشرة ولاية في الجنوب يسكُنها تسعة ملايين .

(٢) راجع موجز تاريخ الولايات المتحدة : ٢٠١ ـ ٢١٧ ، والموسوعة البريطانية : Britannica 8:862

(٣) إذا كانتْ أمريكا بعد ذلك قد قَضَتْ على العُبُودية الرَّسمية ، فقد اتَّسمت العلاقاتُ بين الزّنوج (حَفَدةِ الأرِقّاء) والمتعصبين البيض بما هو معروف في التاريخ المعاصر من تفرقة عنصريّة ، حيث بلغ منها التعصّب أوجَهُ باغتيال (مارتن لوثر كنج) زعيم « الحقوق المدنية » ورجل السلام وذلك في (٤ إبريل عام ١٩٦٨ م) في مدينة ممفيس بولاية تينسي ، في نفس الشهر الذي قُتِلَ فيه الرّئيس لينكولن قبل ذلك بقرن وثلاث سنوات !

جُهودٌ دوَليّة

في الرُّبعِ الأخير منَ القَرْنِ التّاسع عشر كانتِ القُوَى الكُبْرى ، وأهمها بَريطانيا وفرَنسا ، قد تبنَّتْ بشكلٍ أساسي قضيَّةَ تحريم الرّق والاتّجار بالرقيق ، وإن كانت قد دخَلَتْ من ناحية أخرى في مرحلةٍ جديدة من الاحتلال بالقوَّة العسكرية لشعوب أفريقيا وآسيا[1] هي مرحلةُ الاستعمارِ والأمبرْيالية الكُولُونية التي امتدَّت حتى عصرِنا الحَديث . ولعلَّه من غريبِ المُفَارقات أن بعضَ دَعَاوَى ذلك التدَخّل والاحْتلال كانتْ بغَرَضِ « القضاء على جُذُور مَنَابِع شرور الرّق في مَنْبَعه ! »[2] وكيفما كان الأمرُ فقد تُنُودي إلى عَقْدِ مؤتمر دبلوماسي دولي في بَرْلين فعقد عامَ ١٨٨٥ م وتمخَّض عن (اتّفاقية برلين) التي تُلزِمُ الدول المشاركة ومنها دولٌ إسلامية بمقاومة تِجارة الرقيق « وبشكل خاص تجارة الرّقيق الزّنجي » .

وبعدَ ذلك بخَمْسِ سنوات عُقِدَتِ الاتفاقيةُ الدَّولية الثّانية (اتفاقية بروكسل عام ١٨٩٠ م) التي وَقَّعَتْ عليها ١٨ دولةً كان من بينِها ، بالإضافة إلى الدول الأوربية الرئيسية (أمريكا ، وتركيا ، وإيران وزَنْجِبار) وهي دول لم تَكُنْ بشكل أو آخر قد أعلنت بجسمٍ من قَبْلُ

(١) جرى احتلالُ مُعْظَمِ أقطار أفريقيا في النصف الثاني من القَرْنِ ، ومن بينها من الدول العربية الجَزائر ١٨٣٥ ، ومصر والسودان ١٨٨٢ ، وبناءً على الاتّفاق الودي (١٩٠٤) أطلقت فرنسا يدَ بريطانيا في المشرق العربي مقابلَ إطلاق يد الأولى في المغرب العربي .

(٢) Britannica : 8 : 863

تحريمَ العُبُودية وتجارة الرقيق[1] ومع ذلك فقد وقعت بعض حوادث خرق لتلكَ الاتّفاقات كان أبرزها متعلّقاً بالكُنْغُو (البلجيكي) ، وتسخيرِ الهُنُود في (بيرو) ، بالإضافة إلى عَدَم تمكُّن إمبراطور الحَبَشة من انتقالِ هذه التّجارة خارجَ الحَبشة التي كانَتْ نشطة في البحرِ الأحمر .

وأخيراً نَهَضتْ عُصْبَةُ الأمَمِ المُتّحدة النَّاشِئةُ بعدَ الحَرْب العَالَمِيّة الأُولى بدراسةٍ عَالمية واسعة النطاق ، بقصد إلغاء الرِّق ، وقد كانت بوادرُ نجاحِها في مؤتمرها الدولي عام ١٩٣٦ م . بيدَ أنّ العمل في تجارة الرقيق استمرَّ موجوداً في آسيا الوُسْطى وفي أجزاء من الصِّين والجزيرة العربية ، وفي أجزاءٍ مختلفةٍ من أفريقيا وخاصة ليبريا وأثيوبيا (الحَبَشة) حيث كان وُجُودُه في الأخيرة هو الأساس الذي اعتَمَد عليه جهازُ الدّعايةِ التّابعُ (لموسوليني) لتسويغ غَزْوِه للحَبَشة عام ١٩٣٥ م[2] .



---

(١) Britannica : 8 : 863

(٢) الموسوعة البريطانية (Britannica) : 8:863 ، والعربية : ٨٧٦/٣ ، وانظر : موسوعة تاريخ العالم ، لوليم لانجر (الترجمة العربية) : الجزء (٦) .

٦ ـ العبيد في اليمن

حَتَّى تاريخِ تحريمِ تِجارةِ الرَّقيقِ

(١٣٥٢ هـ/١٩٣٤ م)



٦) العبيدُ في اليَمَن حتَّى تاريخِ تحريمِ تجارَةِ الرَّقيق رسمياً عام ١٣٥٣ هـ/١٩٣٤ م

تميَّزتِ الفترةُ التي أعقبَتْ وفاةَ الْمَهْدي عبدِ الله (ت ١٢٥١ هـ/١٨٣٥ م) حفيدِ المنصورِ عليٍّ بفوضىً واضْطِراب أحوال يتنافس فيها عدد من الأئمة الضعاف لم يكنْ لبعضِهم إلا خطبة الجمعة[1] مجردين من الحول والطول والسلطان . دَعْ عنك امتلاكَ العبيدِ أو التسرِّي بإماء من الرّقيق ! وكانت هذه الفترة إرهاصاً لعودَة العثمانيين الأتراك وقد اقتصر وجودُهم من عام ١٢٦٥ هـ/١٨٤٩ م على الْحُدَيدة وموانئ الساحل ، حتى كان فتحُ قناة السُّوَيس (عام ١٢٨٦ هـ/١٨٦٩ م) تم لهم الاستيلاء على صنعاء عام ١٢٨٩ هـ/١٨٧٢ م واستمر وجودُهم حتى انسحبوا في نهاية الحرب العالمية الأولى ١٣٣٦ هـ/١٩١٨ م . وكانَ الإمام يحي حميدُ الدِّين - بموجب توقيعِهِ مَعهم اتفاقيَّة (دَعّان) عام ١٣٢٩ هـ/١٩١١ م هو الحاكمَ والوارثَ الشرعيَّ لما عُرِفَ (بولاية اليمن[2])

---

(١) راجع كتابنا : (فترة الفوضى وعودة الأتراك إلى اليمن) .

(٢) كانت ولاية اليمن أو (يمن ولايتي) تضمُّ في تقسيمها الإداري أربعةَ أقضية أو (سناجق) هي : (صنعاء ، الحديدة ، عسير ، تعز) انظر خريطتَها مع خرائط الولايات العربية الأخرى في كتاب الدكتور إبراهيم خليل أحمد : (تاريخ الوطن =

في حين استمرّ الوجودُ الاسْتعماري البَريطـاني لعـدَن والجنوب منـذ احتلال عَدَن في مطلع عام ١٨٣٩ م (١٢٥٤ هـ) .

لم تعرفِ اليمنُ في ظلِّ الحكمِ العُثْمانيِّ الأخير ظاهرةَ الاتِّجـار بـالرَّقيق ، أو وجودَ أسواقٍ للنِّخاسة كتلك التي انتشرتْ في القارَّة الأفريقية ، ونشط - على سبيل المثال - الخِديوي إسماعيلُ حاكمُ مصر في شنّ حملاتٍ عسكريـةٍ إلى قلب أفريقيا للضَّرب على أيـدي النخَّـاسين وتحريرِ الأرقّـاء ، خـاصـةً بعد أن وقَّع مع بريطانية اتفاقيَّة في عام ١٨٧٧ م للتعاون بهذا الصـدد[١] ؛ ولهذا فإنه باستثناء ماسنذكُره عن تِهـامَـةَ ، لم تكن ظـاهرةُ امتلاكِ عبيـدٍ أو إماءٍ إلاَّ حالات نـادرةً معـدودةً معروفـة[٢] ، من ذلـك امتلاكُ الشيخِ محمّد البَليلي الذي كان عاملاً بصَنْعاءَ متعاوناً مع الأتراك وأخيه علي باشا[٣] أربعةَ عبيدٍ وعَدَداً من الإماء . وحينَ دخلَ الإمام يحيى حميدُ الدِّين صنعاءَ في عام ١٣٣٧ هـ/١٩١٨ م كانَ معه عبدٌ واحـد ورثَـه عن أبيـه المنصور هو

= العربي في العهـد العثماني ١٥١٦ - ١٩١٦ م) ، وزارة التعليم والبحث العلمي/جـامعـة الموصـل : (ص ٤٥٨) ؛ وبموجب اتفـاقيـة (مـدروس Mudros) سنـة ١٩١٨ بعـد هزيمة تركية في الحرب العالمية الأولى تحرَّرت رسمياً جميعُ الولايـات العربيـة من الْحُكم التركي لتقع باستثناء اليمن والحجاز في يد الاستعمار الأوروبي .

(١) راجع الموسوعة الإسلامية : مادة (c_{ABD}) والعربية : ٨٧٥/٢

(٢) تعتمد معلوماتنا - غير المرجعيّة - هاهنا على استفسارات وإجابـات حصلنـا عليهـا من بعض المصـادر المـوثـوقـة المعـاصرة للفترة وسيكـون الفضـل لمن يـزوِّدنـا بـأي إضـافـة أو تصحيح .

(٣) قتل في معركة خارج صنعاء في ٦ ذي الحجة سنة ١٣٠٩ هـ/١ يونيو ١٨٩٢ م (انظر : زبارة (أئمة) ٨٣/١ - ٨٤) .

الأمير ضَمْصَام ، الذي كان على درجة محمودة من العلم وحسن المعشر ، وقد عُمِّر وشغل بعضَ الأعمال حتّى تُوُفِّي بُعَيْد الثورة في سنة (١٣٨٢ هـ/١٩٦٢ م) .

وكان من المعاصرين لتلك الفترة وعرف عنهم امتلاكُهم لعبدٍ أو اثنين الشيخُ حمود شَريان الذي كان له أملاك في موطنه (خَبان) ، وكان كثيرَ الإقامة في صنعاء ، وعُرِف عنه ظرفُه ونقدُه للإمام يحيى والحاجِّ محمَّد تلها[1] . وبعضُ المشائخ كآل أبي رأس في بَرْط ، وآل الرّصاص في البَيْضاء .

بيدَ أن التزوُّج بإماءٍ وجوارٍ حبشيَّات الأصل شهد انحساراً ثم اضمحلالاً بعد أن كان منتشراً في طبقة التجّار وبعض الموسِرين من الأسر ، وذلك عن طريق التواصل والتجارة مع الحبشة ، ومنهم بعضُ تجّار الْحُدَيْدة وتَعِزّ وصَنْعاء[2] .

أمّا في تهامةَ فقد كان الأمرُ مختلِفاً وله جذورُهُ التاريخيَّة[3] ، وساعد وقوعُ الْمِنْطَقة على مَقْربة من شاطئ البَحْر الأحمر بعض الأسر المتنفذة

---

(١) هو والد المرحوم الوطني محّمد بن محمد تلها الذي كان محافظاً للعاصمة صنعاء بعد الثورة سنة ١٩٦٥ م ، وقد توفي سنة ١٩٧٣ م .

(٢) أمكنني الحصولُ على اسم نحوِ عشرينَ أسرةً في عدة مُدُن منها من تجار صنعاء أمثال (بيت السنيدار) و (بيت الزبيري) و (بيت دلاّل) ، وعرف للحاج حمود شُمَيْلَة امتلاكُه عبداً كان يُساعده في تِجَارته وجَارية لخدمته ورعايته ، لأنه كان قطعياً ، وكان لبعض الأسر من فروع بيت القاسم بن محمد جوار تَزَوّج وخَلّف بَعْضُهم مِنْهُنّ .

(٣) راجع (ص : (٢٢) فيما سبق وما بعدها) وانظر معجم الحجري : ١/١٥٦ ـ ١٦٢ ؛ ١/٢٥٠

والتي كانت تملك أراضي زراعية أوسعَ من تلك القطع الصغيرة في مدرجات الجبال وصغار الوديان ، ساعدهم في أن يجتلبوا بين وقت وآخر حاجتهم ممن يزرع تلك الأراضي الخصبة المرويّة بفيضانات الوديان الشهيرة كوادي مور ورَمَع وسهام وسرْدُد ، فكثر نسبياً وجودُ العبيد لدى تلك الأسر أمثال (بيت هيج) والسيد (قوسم) صاحب المنيرة ، وآل الفاشق أصحاب قبائل الزرانيق وأمثالهم ممن كانوا يتَّخِذون العبيدَ أيضاً للحراسةِ والإماءَ زوجاتٍ .

وفي عام ١٣٤٦ هـ/١٩٢٧ م عيَّنَ الإمامُ يحيى ابنَه الثاني البدرَ محمداً أميراً (محافظاً) على لواء الْحُدَيْدة بعد عودِه من زيارةٍ لروما ومصر[١] ؛ وقد أمضَى في منصبه أربعَ سنواتٍ حتى مات غَرقاً في البَحْر في (١٥ ذي الحجة ١٣٥٠ هـ/٢٢ مارس ١٩٣٢ م) ويبدو أن البدرَ هذا قد تأثَّر بحياة أهل تهامة وعاداتهم الشائعة حتّى وقتِه ، فاشترى عدداً من العبيدِ والإماءِ الصغار ترك منهم عشرةً بعد غرقه ، فألحقهم والدُه (بدارِ الأيتام) في صَنْعاء ، وعُرِف منهم « باشه ، وبرو » ، وكانا أخوين ، ومبروكُ ، وعبدُ الله ، وعَنْبَر ، ولكن الأوّل منهم (باشه) كان شَرِساً شاذاً سيِّئ الأخلاقِ ، فتآمر عليه زملاؤه في دار الأيتام وأماتوه غرقاً في ماجل الأمير خارجَ سورِ صنعاء القديمة »[٢] ، أمّا الباقون منهم فقد ألحقهم

---

(١) راجع عنه كتابنا (المنار واليمن) : ١٧٤ ـ ١٧٦

(٢) عن الأخ العالم التربوي الأستاذ العِزِّي مُحمد بن حسن اليَرِيمي مُستشار وزارة التربية والتعليم حَفِظَه الله .

الإمامُ يحيى بحَرَسِه الخاصّ وترقّى منهم (عَنْبَر) فكانَ حاملَ سيفِ الإمام ومعدوداً من الحاشية بعد أن مُنِحَ لقبَ الأمير ، وهو ما يذكّرنا بما سبقت الإشارة إليه من حمل أسلاف عَنْبَر لهذا اللقب الذي شاءت الأقدار أن يكون آخرَهم في تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ، وقد عاش حتى تُوفّي مؤخّراً بعدَ الثورةِ بزمنٍ قليل .





٧ ـ الإعلان اليَمَني ـ البَريطاني
في مَنْع تجارةِ الرقيق
(١٣٥٢ هـ / ١٩٣٤ م)

كانتِ المعاهدةُ (اليمنيَّةُ الإيطاليةُ) المبرمةُ في ٢٤ صفر ١٣٤٥ هـ / ٢ سبتمبر ١٩٢٦ م ، أولَ معاهدةٍ يعْقِدُها الإمامُ يحيى مع دولةٍ أجنبيّة ؛ وترجعُ أهميتُها « إلى أنها أولُ اعترافٍ دَوْليّ باستقلالِ اليَمَن ، وأن الإمامَ ملكٌ مستقل ، وتُعتبرُ المعاهدةُ كذلك تتويجاً لمجهوداتِ إيطاليةَ الدبلوماسيةِ في المِنْطَقَة ، وفي مجالِ منافَستِها الاستعماريّة مع إنجلترا بالذات »[١] .

وليس من شكٍّ في أن الإمامَ يحيى قد أرادَ حليفاً قويّاً يواجهُ به الخطرَ البريطانيَّ في الجنوب الذي استمرّت اعتداءاتُه التي بلغت ذروتِها في قصف الطائراتِ البَريطانية للْمُدُنِ اليمنيّة عام ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٨ م فيما عُرِفَ بسنةِ الطّائرات[٢] ، وإذ ذرّت مشاكلُ الحدودِ الشماليّةِ مع الْمَمْلَكَةِ العربيّةِ السّعودية قَرْنَها تميّزتِ السنواتُ التاليةُ لعام ١٣٥٠ هـ / ١٩٣٢ م بسياسات

---

(١) السيد مصطفى سالم (الدكتور) : تكوين اليمن الحديث (ط٢) : ٥٢٦ ؛ وانظر كتابَنا (المنار واليمن ١٨٩٨ ـ ١٩٣٥) : ١٤٥ ـ ١٤٨ ، ٤٦١ ـ ٤٧٢

(٢) وقع الإمام يحيى في مطلعها اتفاقية صنعاء مع الاتحاد السوفييتي : (١٧ جمادى الأولى ١٣٤٧ هـ / أول نوفمبر ١٩٢٨ م) .

التّفاوُضِ والنَّفَسِ الطّويل ، تلك السياسات التي لم تفلح في تجنُّبِ وقوعِ حرب محتَّمة في الشمال[1] ؛ لكن كان من نتائِجها في الجنوب « معاهدةُ الصداقةِ والتّعاونِ المتبادَلِ بينَ اليمنِ وبريطانيا » وقد جَرَى التوقيعُ عليها في صنعاءَ (يوم ٢٦ شهر شوال ١٣٥٢ هـ / ١١ فبراير ١٩٣٤ م) بعد مفاوضاتٍ طويلةٍ كان آخرُها تلك التي أجراها وحاكمَ عَدَن المستر (ب.آر.رايلي B.R.REILLY)[2] في صنعاء ، واستمرت شهرين ، كما ذكرت صحيفةُ الإيمان في عددها /٩٠/ الصادرِ في اليوم التالي لمغادرتِهِ العاصِمَةَ في طريق عودِه بعدَ يومين من توقيعِهِ للمعاهدةِ باسمِ الملكِ جورج ، كما وقعها عن الإمام القاضي محمّدُ راغب بنُ توفيق وزير خارجيته[3] . ولم تَنْشُرِ (الإيمان) نَصَّها كاملاً إلاّ بعد ستة أشهر (أي بعد تبادُلِ وثائِقِ التصديق)[4] وكانت افتتاحيَّتُها في ذلك العدد ترحيباً :

---

(١) انظر : كتاب (الدكتور) سالم : ٣٦١ - ٣٨١ ؛ المنار واليمن : ١٣١ - ١٦٨

(٢) يعتبر السير بيرنارد رايلي (Sir B.R.REILLY) من أخطر وأكفأ الضُّباط في الإدارة الاستعمارية البريطانية ، وكانت معظمُ حياةِ خدمته في عدن ، فبعد أن خدَم في المحميّة بدرجة عقيد ، عُيِّنَ مقيماً سياسياً بالنيابة من سنة ١٩٢٥ - ١٩٢٦ ثم (مقيماً سياسياً ٢٦ - ١٩٣٧) وأخيراً مُنِحَ لقب (سير Sir) وعين حاكماً (والياً) من عام ١٩٣٧ حتى عام ١٩٤٠ وكان أول من حمل لقب الحاكم منذ احتلال عدن سنة ١٨٣٩ ، وكان الممثل المقيم قبل ذلك يتبع إدارة مستعمرة الهند ، فأصبح بعدها تابعاً لوزارة المستعمرات في لندن مباشرة .

(٣) توفي المرحوم القاضي محمد راغب في صنعاء في عام ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ م ولعله كان قد تجاوَزَ الثمانين .

(٤) العدد (٩٦) الصادر في جُمادى الأولى سنة ١٣٥٣ هـ / سبتمبر ١٩٣٤ م .

« بقدوم هيئةِ السِّفارة المحترمة الواردةِ من حُكومة بَريطانيا » وكانتْ تلكَ البعثَةُ (السّفارة) مكونةً من عددٍ من المسؤولين البَريطانيين الذين حَمَلُوا معهم وثيقةَ التصديق على المعاهدة . وفي اليوم الرابع والعشرين من شهر جمادَى الأولى ٣ سبتمبر قابلتِ الهيئةُ بصورةٍ رسمية الإمام يحيى ، وبعد أن ذكرتِ (الإيمانُ) مراسيمَ الاستقبال ثُمَّ مغادَرَةَ البعثةِ في اليوم التالي ، نشرتْ مباشرة النصَّ الرسميّ للمعاهدةِ بموادّها السّبع في صفحتِها الأولى والثانية ، وهو النصُّ العربيُّ المتداولُ والمعروفُ من يومِها في كل الكُتُبِ والمصادرِ المنشورةِ حتّى اليوم .

إن ما يَهُمُّنا في بحثنا الذي اقتربنا من نهايته وبعد هذا التمهيد ـ الذي ربما أطلنا فيه ـ هو ذكرُ أمرٍ قد أغفلَه أو جهلَه كلُّ من كَتَبَ في تاريخ اليَمَن السياسيِّ الْمُعاصِرِ ، وبالذات من عالَجَ منهم موضوعَ تلكَ المعاهدةِ وملابساتِها . وهو أمرٌ على جانب بالغ من الأهمية لأنّ له علاقة بتحريم الرق ، فقد قدر لي قبل أكثر من عشر سنوات وأنا أعدّ رسالة الدكتوراه أن أراجعَ في لندن أرشيف الوثائق البَريطانية ، وصوَّرْتُ فيما صوّرْتُ عدداً من الوثائق ذاتِ الصّلَة باليَمَن ، ولم أجدْ حَرَجاً حينئذ من أن أطلب صورةً من النصّ الإنجليزي والعربي لتلك المعاهدةِ العتيدة التي جاء في نصّ آخر مادّة فيها بكِلا اللّغتين ما يلي :

« .. كتبتْ هذه المعاهدةُ من نُسْخَتَيْنِ باللّغتين الإنجليزية والعربية ، وإذا نشأَتْ شكوكٌ في تفسير شيء من هذه الموادّ فالفريقانِ الْمُتَعاهدانِ السّامِيانِ يعْتَمِدانِ **النَّصَّ العربي** ، حُرِّرَت في صنعاء ... » .

ولَمّا قارَنْتُ النَّصَّيْن فيما بعد لَفَت نظري بـدايـةً أن في نهـايـةِ العُنوان الإنجليزي لنص المعاهدة بعد عبارة (معـاهـدة صـداقـة .. إلخ) عبـارة : With Exchange of Notes وهو ما يَعْني ملحقاً ـ هو جزء من المعـاهـدة ـ تم بموجبِه (تبادُلُ الرّسائل) لتأكيدِ الاتّفاق عليه .

وجاء في الصفحـة الخـامسـة من النص الإنجليزي بعـدَ توقيعِ الْمُمَثِّلَيْن (محـمـد راغب والمستر رايْلي) في نهـايـة الصفحـة الرابعـة نصّ الرسـالتين المتبادلتَيْن برقمي (1) و (2) وقد أثبتّ نصَّيْهما الإنجليزي والعَرَبي فيما يلي ، مشيراً إلى أنني بعـد الاطـلاع على النصّ الإنجليزي بحثت عن النصّ العربي للرسـائل المتبـادَلَـةِ والمتعلّقَـةِ بموضوع تحريمِ الرّق وأوليـاتهـا فـوجـدْتُـه في الأرشيف أيضاً[1] ـ كما هو مثبت ـ .

ولم أجدْ تفسيراً لإغفاله في الكتب والأبحـاث المنشورة ، إلاّ أنـه لم يرد فيما نَشَرتْه (الإيمان) ـ (التي هي فيما أظن المصدرُ الأول والذي اضْطُرِرْتُ للرّجوع إليه) ـ ، ربما اعتقاداً بأنه ليس من صَمِيم بُنُود تلكَ الاتفاقية ، أو لأن الإمامَ يحيى كانَ قد جارَى البَريطانيين في تبادُلِ الرّسائل دونما اقتناعٍ بأهميَّةِ الموضوع الذي قد يسبِّبُ له حرجاً من أي نوع .

وكيفَما كان الأمرُ فما نَنْشُره اليومَ هو من بـابِ التّوثيقِ الـذي تـوجبـه

---

(١) - Propose Slavery article (E 176/E 80/E 295/E 626/22/91).

- F.O.minute on slavery article. (E 29/22/91).

- Treaty Signed ll,th February: Retunrn of British.

Missin: Imam's messege to the King. (E 1072/E 995/22/91).

أمانةُ كتابة التاريخ وموضوعيَّتُها ، أما نظام الرّق والعبوديّة فقد مَضَى في العالم عهدُهُ ومعه الإمامُ يحيى بثورةِ الدستور (١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م) بَلْ ونظامُ حكْمِ الإمامَةِ البغيض في اليَمَن نفسه بثورَةِ السادِسِ والعِشرين من سبتمبر / أيلول ١٩٦٢ م المجيدة ، تلك سنة الله في خَلْقِه ﴿ ولَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ .

☆ ☆ ☆



المعاهَدَةُ اليمنيَّة - البَريطانيّة
ونَصُّ (الرّسائل المتبادَلة)
في مَنْعِ تجارَةِ الرَّقيق وبيعه
(٢٥ و ٢٦ شوال ١٣٥٢ هـ/ ١٠ و ١١ فبراير ١٩٣٤ م)



Yemen No. 1 (1934)

Treaty of Friendship and Mutual Co-operation

between

His Majesty in respect of the United Kingdom and of India and the King of the Yemen

(With Exchange of Notes)

Sana, February 11, 1934

[The Treaty has not been ratified by His Majesty]

Presented by the Secretary of State for Foreign Affairs to Parliament by Command of His Majesty

الصَّفْحةُ الأُولى (عنوان النص الإنجليزي)

متضمّناً عبارة (تَبادُل الرّسائل)

5

Exchange of Notes.

---

(1) *Lieutenant-Colonel Reilly to the Imam.*

Your Majesty,

I HAVE the honour to refer to my conversations with your Majesty's plenipotentiary relating to the present common desire of all enlightened nations to co-operate in the suppression of the slave trade, and to enquire whether your Majesty will enable me to convey to His Britannic Majesty's Government your Majesty's assurance that you will by every possible means assist them in their endeavours to prevent the African slave trade by sea.

(Respects.)

B. R. REILLY,
His Britannic Majesty's Commissioner and Plenipotentiary.

Sana, *February* 10, 1934 (*Shawwal* 25, 1352, A.H.).

رسالة المستر (ب . آر . رايلي) ممثل الملك جورج إلى الإمام يحي في الأصل الإنجليزي وفي الصفحة المقابلة نصها العربي الرسمي الموقع عليه

من المندوب المفوض لجلالة ملك بريطانيا العظمى الى جلالة ملك اليمن حضرة الامام يحيى بن محمد حميد الدين ايده الله

يا صاحب الجلالة

لي الشرف ان اشير الى محادثتي مع مندوب جلالتكم المفوض المتعلقة بالرغبة الحاضرة عند جميع الامم المتنورة في الاتحاد لاخماد تجارة الرقيق والاستفسار عما اذا كنتم جلالتكم تمكنوني من تبليغ حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى تأكيدات جلالتكم في مساعدتها بكل ما لديكم من الوسائل في سعيها لمنع تجارة الرقيق الافريقي عن طريق البحر .

وتفضلوا بقبول فائق احتراماتي سيدي

صحيح بي ار رايلي

المندوب المفوض لجلالة ملك بريطانيا العظمى

صنعاء ، بتاريخ ١٠ فبراير سنة ١٩٣٤ الموافق ٢٥ شوال سنة ١٣٥٢

Certified true copy.

B.R. Reilly

Resident etc.

من المندوب المفوض لجلالة ملك بريطانيا العظمى إلى جلالة ملك اليمن حضرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين أيّده الله

ياصاحب الجلالة

لي الشرف أن أشير إلى محادثتي مع مندوب جلالتكم المفوض المتعلقة بالرغبة الحاضرة عند جميع الأمم المتنورة في الاتحاد لإخماد تجارة الرقيق والاستفسار عما إذا كنتم جلالتكم تمكنونني من تبليغ حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى تأكيدات جلالتكم في مساعدتها بكل مالديكم من الوسائل في سعيها لمنع تجارة الرقيق الإفريقي عن طريق البحر .

وتفضلوا بقبول فائق احتراماتي سيدي

صحيح بي‌آر رايلي

المندوب المفوض لجلالة ملك بريطانيا العظمى

صنعاء : بتاريخ ١٠ فبراير سنة ١٩٣٤ الموافق ٢٥ شوال سنة ١٣٥٢

(2) *The Imam to Lieutenant-Colonel Reilly.*

In the Name of God the Merciful and Compassionate!

After tendering our sincere respects, in reply to your esteemed note dated the 25th Shawwal, 1352 (corresponding to the 10th February, 1934), wherein you expressed a desire to have assurances from our Government as to the prohibition of the slave trade, we inform your Excellency that we agree to the prohibition of the African slave traffic, and we will command all our Amils (Governors) to do their utmost to prevent it in all the Mutawakkili (Yemen) country and ports.

(Respects.) (L.S.)

Sana, Shawwal 25, 1352, A.H. (*February* 10, 1934).

النَّصّ الإنجليزي لردّ الإمـام يَحْيَى ، وفي الصفحـة الْمُقـابِلَـة نَصٌ الرّد بالعربية مهوراً في أَعْلاهُ بِخَاتَمه

بسم الله الرحمن الرحيم



حضرة صاحب السعادة المندوب المفوض السامي المستر رايلي والي عدن المحترم نبدي بهذا كامل الاحترام وجوابا لمحرركم العالي المؤرخ ٥ يوليو ١٣٥٢ الحاوي لبيان ما ترغبون فيه من الإيضاح عن تأكيدات حكومتنا في منع تجارة الرق نحن نفيد جنابكم العالي أنا نوافق على منع بيع الرقيق الأفريقي وسنأمر كافة عمالنا ببذل الجهد لمنعه من جميع البلاد والموانئ المتوكلية وتقبلوا منا مزيد الاحترام تحريرا في ٢٦ سنة ٥١

مُلْحَق
بأَسماء المشْهورينَ من الأُمراء العَبيد في عَهْدي المهدي عَبّاس والمنصور علي



ملحق
بأسماء المشهورين
من الأمراء العبيد في عهدي
المهدي عباس والمنصور علي

(رقم الصفحات الواردة كما هي في كتابنا مئة عام ..)

فهارس الكتاب

الأعلام

ن

هـ

و

ي

فهرس الأماكن



الأقوام والشعوب والقبائل والأسر والجماعات



قائمة بعض المراجع المختارة

- الباشا (د. حسن) :
الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ، القاهرة ١٩٦٩
- أنيس (الدكتور محمد) :
الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤ - ١٩١٤) القاهرة ١٩٨٦
- بامخرمة = (أبو مخرمة) (أبو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله)
تاريخ ثغر عدن (١ - ٣) تحقيق أوسكار لوفجرين ، ليدن ، ١٩٣٦ .
- جحاف (لطف الله بن أحمد) :
درر نحور الحور العين - مخطوط (دار الكتب المصرية) .
- ابن حاتم (الأمير بدر الدين محمد) :
السمط غالي الثمن في الملوك من الغز باليمن تحقيق : د. ركس سميث ، سلسلة جب ١٩٧٤ .
- الحبشي (عبد الله) :
مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن ؛ مركز الدراسات والبحوث - صنعاء ١٩٨٠م .
- ابن حجر (أحمد بن علي بن محمد) :
فتح الباري شرح صحيح البخاري ، دار الفكر ١٣٨٩ هـ .
- الخزرجي (علي بن أبي بكر الحسن) :
العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ، (جزآن) ، سلسلة جب ١٩١١ .

- الرازي (أحمد بن محمد) :
تاريخ مدينة صنعاء ، تحقيق : د. حسين عبد الله العمري ،
دمشق ١٩٨٣ (ط : ٢) .
- رافق (د. عبد الكريم) :
بلاد الشام ومصر (من الفتح العثماني إلى حملة بونابرت) ط ٢ / دمشق ١٩٦٨ .
- دائرة المعارف البريطانية :
Encyclo Paedia Britannica, London, 1979
- دائرة معارف القرن العشرين :
محمد فريد وجدي
ط ٣ (١٩٧١) ، دار المعرفة ، بيروت .
- ابن الديبع (عبد الرحمن) :
قرة العيون في أخبار اليمن الميمون
تحقيق : القاضي محمد بن علي الأكوع (جزآن) القاهرة (١٩٧٧) .
- زبارة (محمد بن محمد) :
نيل الوطر (جزآن) القاهرة ، ١٣٥١ هـ .
- الشناوي (د. عبد العزيز محمد) :
الدولة العثمانية (دولة إسلامية مفترى عليها) القاهرة ١٩٨٤ .
- الشوكاني (محمد بن علي) :
البدر الطالع ، القاهرة ١٣٥٠ هـ .
- عبد العال (د. أحمد) :
الأيوبيون في اليمن ، القاهرة ١٩٨٠ .
- عمارة (اليمني) (نجم الدين ، أبو محمد ، عمارة بن أبي الحسن الحكمي) :

تاريخ اليمن ، المعروف بالمفيد في تاريخ صنعاء وزبيد ، تحقيق القاضي محمد بن علي الأكوع ، القاهرة (ط٣) ١٩٧٩ .

- العلوي (علي بن محمد) :
سيرة الهادي يحي بن الحسين
تحقيق : د. سهيل زكار ، دمشق ١٣٩٢ / ١٩٧٢ .

- العمري (د. حسين بن عبد الله) :
مئة عام من تاريخ اليمن الحديث ، دار الفكر - دمشق ١٩٨٤ (ط ٢ ١٩٨٨) .
فترة الفوضى وعودة الأتراك إلى صنعاء ، دار الفكر - دمشق ١٩٨٥ .

- المنار واليمن
(١٨٩٨ - ١٩٣٤ م)
دمشق - دار الفكر ١٩٨٨

- فشر (هـ . آ . ل .) :
تاريخ أوربا (العصور الوسطى)
نقله إلى العربية : محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني (دار المعارف بمصر ١٩٦٦) .

- لوبون (د. جوستاف) :
حضارة العرب ، نقله إلى العربية : عادل زعيتر ، القاهرة (مطبعة عيسى الحلبي) ١٩٦٩ .

- المقريزي (تقي الدين) :
- السلوك لمعرفة دول الملوك .

- الموسوعة الإسلامية (ط الإنجليزية) = (E.I) .

- الموسوعة العربية الميسرة دار نهضة لبنان ، بيروت ، ط ١٩٨١ .

- نيبور (كارستن) :
Niebuhr : Travels Through Arabia
- الهمداني (د. حسين بن فيض الله) :
الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن ، القاهرة ١٩٥٥ .
- والتر دوني (الدكتور) :
أوروبا والتخلف في أفريقيا سلسلة عالم المعرفة (١٣٢) الكويت ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م .
- وليم لانجر :
موسوعة تاريخ العالم (ط العربية ، القاهرة عدة طبعات) .
- يحيى بن الحسين :
غاية الأماني في أخبار القطر اليماني (جزآن) .
تحقيق : د. سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٦٨ .

فهرس الموضوعات